تَطْرِيزُ

شَرْحِ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ

تَأْلِيفِ الْحَافِظِ

أَبِي الْفَرَجِ ابْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ

رَحِمَهُ ٱللَّهُ

شَرْحُ فَضِيلَةِ الشَّيخِ:

صَالِحِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَمَدٍ الْعُصَيمِيِّ

- حفظه الله -

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربنا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

هذا هو الدرس السادس عشر من برنامج الدرس الواحد السادس، والكتاب المقروء فيه هو شرح حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للعلامة ابن رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقبل الشروع في إقرائه لابد من ذكر مقدمتين اثنتين:

المقدمة الأولى:

التعريف بالمصنف وتنتظم في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: جُرُّ نسبه.

هو الشيخ العلامة الحافظ عبدالرحمن بن أحمد بن رجب السلمي الدمشقي ثم البغدادي.

يكنى بأبي الفرج ويعرف بابن رجب.

المقصد الثاني: تاريخ مولده:

ولد صبيحة الخامس عشر من شهر ربيعٍ الأول سنة ستٍ وثلاثين وسبعمائة.

المقصد الثالث: تاريخ وفاته:

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في شهر رجب سنة خمسة وتسعين وسبعمائة وله من العمر تسعٌ وخمسون سنة فرحمه الله تعالى رحمةً واسعة.

المقدمة الثانية:

التعريف بالمصنف وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضًا:

المقصد الأول: تحقيق عنوانه:

اسم هذا الكتاب هو شرح أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو الاسم المثبت على النسخ الخطية، وبه ذكره جماعةٌ من مترجمي المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

المقصد الثاني: بيان موضوعه.

موضوع هذا الكتاب هو: شرح حديثٍ نبويٍّ في فضل العلم.

المقصد الثالث: توضيح منهجه.

سبق غير مرة، الإعلام بأن أبا الفرج بن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى له عنايةٌ بشرح الأحاديث النبوية، دأب فيها على صنيعتين اثنتين:

أولاهما: تقطيعه الحديث إلى جملٍ متتابعة؛ فيفرز جملةً من الحديث، ويشرحها ثم يُلحقها بجملةٍ ثانيةٍ حتى يُتم شرح الحديث كله.

وثانيهما: اكتساء شرحه بتفسير الحديث بالحديث.

والإيراد للآثار والأشعار في صياغةٍ سهلةٍ واضحة تزدان بتهذيب النفس وترقيقها.

القارئ:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين الحاضرين منهم خاصةً والمستمعين.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

خرَّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه في كتبهم:

أن رجُلاً قدِم مِن المدِينةِ على أبِي الدَّرداءِ وهُو بِدِمشْق، فَقَالَ: ما أقْدمك يا أخِي؛ قال: حدِيثٌ بلغنِي أنّك تُحدِّثُهُ عنْ رسُولِ اللهِ ﷺ.

قال: أما جِئْت لِحاجةٍ؟

قال: لاَ.

قال: أمَا قَدِمْتَ لِتِجارةٍ؟

قال: لاَ.

قَالَ: ما جِئْتُ إلاَّ فِي طَلَبِ هَذَا الحدِيثِ؟

قال: نَعَمْ.

قال: فإنِّي سمِعْتُ رسُول اللهِ ﷺ يقُولُ: «**منْ سلك طرِيقًا يبْتغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ له بِهِ طرِيقًا إلى الجنَّةِ، وإِنَّ الملائِكة تضعُ أجْنِحَتَهَا رِضًى لِطالِبِ العِلْمِ، وإِنَّ العالِم ليسْتغْفِرُ لهُ منْ فِي السَّمواتِ ومنْ فِي الأرْضِ حتَّى الحِيتانُ فِي الماءِ، وفضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كفضْلِ القمرِ ليلة البدر على سائِرِ الكواكِبِ، وإِنّ العُلماء ورثةُ الأنْبياءِ، وإِنّ الأنبياء لمْ يُورِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهمًا إِنّما ورّثُوا العِلْم؛ فمنْ أخذه أخذ بِحظٍّ وافِرٍ**».

وكان السلف الصالح -رضي الله عنهم- لقوة رغبتهم في العلم والدين والخير يرتحل أحدهم إلى بلدٍ بعيدٍ لطلب حديثٍ واحدٍ يبلغه عن النبي ﷺ.

وقد رحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلى مصر للقاء رجلٍ من الصحابة بلغه عنه حديث يُحدثه عن النبي ﷺ.

وكذلك فَعَلَ جابر بن عبد الله الأنصاري مع كَثْرَة ما سمع من النبي ﷺ من الحديث ورَوَى.

وكان أحدهم يرحل إلى من هو دونه في الفضل والعلم لطلب شيءٍ من العلم لا يجده عنده.

ويكفي في هذا المعنى ما قص الله علينا من قصه موسى وارتحاله مع فتاه، فلو استغنى أحدٌ عن الرحلة في طلب العلم لاستغنى عنها موسى عليه السلام، حيث كان الله قد كَمَّله وأعطاه التوراة التي كَتَبَ له فيها من كل شيءٍ، ومع هذا: فلما أخبره الله ﷻ عن الخضر؛ أن عنده علمًا يختص به سأل السبيل إلى لقائه، ثم سار هو وفتاه إليه كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ يعني: سنين عديدةً، ثم أخبر أنَّه لما لقيه قال له: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ .

وكان من أمرهما ما قَصَّه الله في كتابه، ومن حديث أبي بن كعبٍ، عن النبي ﷺ في قصة موسى والخضر مُخَرَّجٌ في الصحيحين وهو مشهورٌ.

وكان ابن مسعود يقول: واللهِ الَّذِي لا إِله إِلَّا هُو ما أُنْزِلتْ سُورةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ إِلَّا وأنا أعْلمُ أيْن نزلتْ، ولا نزلتْ آيةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ إِلَّا وأنا أعْلمُ فِيم أُنْزِلتْ، ولوْ أعْلمُ أحدًا أعْلم مِنِّي بِكِتابِ اللهِ تبْلُغُهُ الإِبِلُ لركِبْتُ إِليْهِ .

وقال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : لوْ أعْيتْنِي آيةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ فلمْ أجِد أحدًا يفْتحُها عليّ إلاّ رجُلٌ ببِرْكِ الْغِمادِ لرحلْتُ إِليْهِ .

وبرك الغماد أقصى اليمن.

وخرج مسروقٌ من الكوفة إلى البصرة لرجلٍ يسأله عن آيةٍ من كتاب الله فلم يجد عنده فيها علمًا، فأُخْبِر عن رجلٍ من أهل الشام فرجع إلى الكوفة ثم خرج إلى الشام إلى ذلك الرجل في طلبها.

ورحل رجل من الكوفة إلى الشام إلى أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يستفتيه في يمين حلفها.

ورحل سعيد بن جبيرٍ من الكوفة إلى ابن عباس بمكة يسأله عن تفسير آية.

ورحل الحسن إلى الكوفة إلى كعب بن عجرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يسأله عن قصته في فدية الأذى.

واستقصاء هذا الباب يطول.

وحلف رجلٌ يمينًا فأشكلت على الفقهاء، فدُلَّ على بلدٍ فاستبعده، فقيل له: إن ذلك البلد قريبٌ على من أَهَمَّه دينه.

وفي هذا إشارةٌ إلى أن من أهمه أمر دينه كما أهمه أمر دنياه إذا حدثت له حادثةٌ في دينه لا يجد من يسأله عنها إلا في بلدٍ بعيدٍ؛ فإنه لا يتأخر عن السفر إليه ليستبرئ لدينه، كما أنَّه لو عَرَضَ له هناك كسبٌ دنيويٌّ لبادر السفر إليه.

الشرح:

ابتدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى شرح هذا الحديث بسياق متنه تامًّا معزوًا إلى جماعة من مخرجيه، كأبي داود في السنن، والترمذي في الجامع، وابن ماجه في السنن، وأحمد في المسند.

وهذا الحديث قد روي بإسناد يحتمل التحسين، وقد جزم بحسنه جماعةٌ من الحفاظ منهم: حمزة الكناني، وابن حجر في فتح الباري، والسخاوي في المقاصد الحسنة.

ثم أتبع المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ذلك ببيان منزلة الرحلة في طلب الحديث؛ لأن هذا الحديث إنما حدث به أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأجل رجلٍ خرج إليه من المدينة إلى الشام رغبةً في سؤاله عن حديثٍ بلغه أنه يرويه عن النبي ﷺ، وذلك الرجل مقتدٍي بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من الرحلة بعده في سماع أحاديثه المروية التي تكون عند بعضهم دون بعضٍ، ثم اطرد هذا الأصل في عمل التابعين وأتباع التابعين؛ حتى صار من خصائص نقل العلم في هذه الأمة الرحلة في طلبه، بحيث صار أصلًا في طلب علومهم؛ لا يشاركهم فيه أحدٌ من الأمم، فلا تعرف الرحلة في الطلب عند اليهود ولا عند النصارى ولا عند غيرهم من أصحاب الأديان السابقة كما عرفت عند أهل الإسلام، وقد صنفوا في بيان فضلها كتبًا عدةً من أشهرها كتاب: «الرحلة في الحديث» للحافظ أبي بكرٍ الخطيب.

ولهم في ذلك أخبارٌ عديدةٌ ؛ فإنهم كانوا يرحلون لأجل الشيء اليسير كما كانوا يرحلون لأجل حديثٍ واحدٍ أو لأجل تفسير آيةٍ واحدةٍ ، أو للوقوف على حكم مسألةٍ واحدةٍ، وهم مقتدون في ذلك بما قصه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن رسولٍ من أولي العزم، هو موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما ارتحل مع فتاه يوشع بن نون إلى الخضر عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وكان من خبرهما ما قصه الله ﷻ علينا في سورة الكهف.

ولإمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى رسالةٌ لطيفةٌ في فوائد قصة موسى والخضر ذكر فيها أشياء تتعلق بالرحلة في طلب العلم.

ثم إن الحامل لأهل الإسلام على الخروج في طلب العلم والارتحال فيه هو اهتمامهم بحفظ هذا الدين، فقد كانت تبلغ همتهم في حفظ أمر الدين كما تبلغ همم عامة الناس في حفظ أمر الدنيا، ومن أهمه دينه فإنه يسترخص في سبيل ذلك الخروج من بلده والتغرب في سبيل تحصيل ما أراده.

ومن لم يبالي بهذا فإنه لا يتحمل مشقة السفر، ولما كان الله ﷻ قد قضى بحفظ هذا الدين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] يسر لأهل الإسلام هذا الأمر فيقع لهم من الأخبار العجيبة في تأييدهم ونصرهم وإعانتهم وتمكينهم من مرغوبهم في الارتحال في الطلب ما لا يحدث لغيرهم، حتى إنه يقع لأحدهم من القدرة على المشي على الأقدام ما لا يستطيعه لو خرج لأجل تجارة.

كما قال أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: مشيت في طلب العلم على قدمي ألف ميل، ثم تركت العد بعد ذلك.

ولا ريب أن سير ألف ميل على القدمين تحتاج إلى قوةٍ عظيمةٍ مع ما في ذلك السير من حمل الكتب والخروج من بلدٍ إلى بلدٍ، والتعرض لأهوالٍ وأخطارٍ شديدةٍ عظيمة، ومع ذلك كان هذا يُيسر لهم ويُهون عليهم، وما ذلك إلا لأجل التأييد الإلهي في حفظ هذا الدين، وسيأتي معنا في كلام الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى البيان الشافي في تيسير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا مصداقًا للأحاديث الواردة في ذلك.

وفي هذا الحديث أن أبا الدرداء بَشَّر مَنْ أخبره أنّه رحل إليه لطلب الحديث بما سمعه من النبي ﷺ في فضل العلم وطلبه.

وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى: {وإذا جاءك الّذِين يُؤْمِنُون بِآياتِنا فقُلْ سلامٌ عليْكُمْ كتب ربُّكُمْ على نفْسِهِ الرّحْمة} .

وقد ازدحم الناس مرة على باب الحسن البصري لطب العلم، فأسمعهم ابنه كلامًا، فقال الحسن: مهلاً يا بني ، ثم تلا هذه الآية.

وفي كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَصَّاهُمْ بِطَلَبَةِ الْعِلْمِ وَالْمُتَفَقِّهِينَ فِي الدِّينِ .

وجاء زِرُّ بن حُبيشٍ إلى صفوان بن عسالٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في طلب العلم قال له: بلغني أَنَّ الْمَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ .

وفي روايةٍ أنه روى له ذلك عن النبي ﷺ.

وازدحم الناس مرةً على باب ابن المبارك فقال: حُقَّ لهُمْ مِنْ وِلايةٍ سُرُورُ الأبدِ.

يغبطهم بازدحامهم على طلب العلم؛ لأنَّه يُؤدي إلى الخلود في النعيم المقيم.

ولهذا تأسف معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند موته وبكى على مفارقة مجالس الذكر فقال: إِنَّما أبكي على ظمأِ الْهواجِرِ، وقِيامِ ليْلِ الشِّتاءِ، ومُزاحمةِ العُلماءِ بِالرُّكبِ عِنْد حِلقِ الذِّكْرِ .

وينبغي للعالم أن يُرَحِّب بطلبة العلم ويُوَصِّيهم بالعمل.

كما قال الحسن لأصحابه -وقد دخلوا عليه-:

مرحبًا بِكُمْ وأهْلاً،

حَيّاكُمُ اللهُ بِالسَّلامِ، وأدخلنا وإيَّاكُمْ دار السَّلامِ،

هذِهِ علانِيةٌ حسنةٌ إِنْ صبرتُمْ وصدقْتُمْ وأيْقنْتُمْ، لا يكُوننَّ حظّكُمْ مِنْ هذا الخيْرِ -رحِمكُمُ اللهُ- أنْ تسْمَعُوهُ بِهذِهِ الْأُذُنِ فيخْرُجُ مِنْ هذِهِ الْأُذُنِ؛

فإنَّهُ منْ رَأَى مُحمّدًا ﷺ فقد رآهُ غادِيًا ورائِحًا لَمْ يضعْ إِلى اللهِ لبنةً على لبنةٍ ولا قَصَبَةً عَلَى قَصَبةٍ، وَلَكِنْ رُفِع لهُ علمٌ فشمَّر إِليْهِ؛ الْوحَا الْوحَا، النّجَا النّجَا؛ عَلاَمَ تُعرِّجُون؛ أتيْتُمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ كأنّكُمْ والْأمْرُ معًا .

الشرح:

أشار المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه الجمة إلى أدبٍ لازمٍ من آداب التعليم في حق المعلمين، وهو ملاحظة التبشير والتيسير على المتعلمين إذا وردوا عليه، فإن هذا أدبٌ كريمٌ؛ لأن العلم مبنيٌ على الرحمة والمناسب للرحمة ظهور التبشير والتيسير كما قال الله ﷻ: ﴿ **وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [**الأنعام: ٥٤**] فإن ظهور الرحمة بهذه الآية وقع من جهتين:

إحداهما: مبادرتهم بالتسليم عليهم.

وثانيهما: من إخبارهم بما كتب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على نفسه من الرحمة.

وإذا كان الوارد قد ورد لأجل طلب العلم فهو أحق الناس بإظهار ذلك فيُظهر له اليسر والرحمة واللين واللطف ، كما كان النبي ﷺ يصنع ذلك، كما روي الشيخان من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قدمنا على رسول الله ﷺ وكنا شبابًا فأقمنا عنده عشرين ليلةً وكان رحيمًا رفيقًا.

فأخبر عن حاله ﷺ معهم لما قدموا عليه لأجل طلب العلم وأخذ الدين وحمله إلى قومهم، فكان ﷺ بهم رفيقًا لطيفًا رحيمًا ﷺ.

وكان يوصي ﷺ أصحابه بذلك، ولذلك لما بعث معاذًا وأبا موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا إلى اليمن وَصَّاهُما بهذا فقال: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا**».

وكانت هذه الوصية من النبي ﷺ محل التقدير والعمل عند أصحابه، فكانت عادتهم و طريقتهم اللطف والرحمة بالمتعلمين.

ثم جرى على هذا من عقل هذه الوصية من علماء السلف رحمهم الله تعالى فكانوا أهل رفقٍ ولطفٍ ورحمةٍ بالمتعلمين ؛ لان العلم مبنيٌّ على الرحمة ، وإذا كان مبنيًّا على الرحمة لم يصلح لمن جاء في طلبه إلا ملاقاته بمقتضى الرحمة من التبشير والتيسير واللطف.

ولهذا جرى عمل المحدثين رحمهم الله تعالى على أن يكون أول مرويٍّ يتلقاه الراوي من شيخه هو حديث الرحمة، الذي اصطلحوا على تسميته بعد ذلك بالمسلسل بالأولية، فصار كل راوي إذا وفد على شيخه لأجل الرواية طلب منه سماع هذا الحديث، فيكون هذا الحديث أول حديث يسمعه الراوي من شيخه، وهو حديث عبد الله بن عمروٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، أن النبي ﷺ قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من الأرض يرحمكم من في السماء**».

فالتحديث بهذا الحديث كله لأجل تقرير أن العلم كله مبنيٌّ على الرحمة، ولهذا فإن أهل العلم يجعلون مناط قلوبهم عند ذكره رعاية إقامة الرحمة بالمتعلم لما سأل التحديث بهذه الرواية.

ومن لطيف ما يذكر في هذا المقام ما حدثني به أحد علماء دمشق، وهو أحمد نصيب المحاميد أن عبد الحي الكتاني المسند المعروف لما دخل الشام فقدم على محدثها في ذلك الزمن وهو بدر الدين الحسني سأله أن يسمعه حديث الأولية، فصرف بدر الدين نظره عن هذا ولم يحدثه به وتشاغل بشيءٍ آخر، ثم انفض المجلس، ثم دخل عليه في مجلسٍ آخر سأله أن يحدثه بحديث الرحمة، فقال: نعم. وحدثه بحديث الرحمة، مع أن الحديث واحدٌ لكنه أراد أن يرسخ في نفس هذا المسند الذي خرج لأجله، أن المقصود هو معرفة ما انتظم في ذلك الحديث من المعنى وهو الرحمة، فجعل تلقيبه بحديث الرحمة أولى من تلقيبه بالحديث المسلسل بالأولية.

ولنشرع الآن في شرح حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي رواه عن النبي.

فقوله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إلى الْجنّةِ. وفي روايةٍ أخرى: سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إلى الجنّةِ**» .

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إلى الْجنّةِ**» .

سلوك الطريق لالتماس العلم: يحتمل أن يُراد به السلوك الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلم.

ويحتمل أن يشمل ما هو أعم من ذلك من سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم، مثل: حفظه، ودراسته، ومطالعته، ومذاكرته، والتفهم له، والتفكر فيه، ونحو ذلك من الطرق التي يتوصل بها إلى العلم.

وأما قوله: سَهَّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إلى الجنّةِ .

فإنه يحتمل أمورًا:

منها: أن يسهل الله لطالبِ العلمِ العلمَ الذي طلبه وسلك طريقه وييسره عليه؛ فإن العلم طريقٌ مُوصِلٌ إلى الجنة.

وهذا كقوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} .

قال طائفةٌ من السلف في هذه الآية: هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانُ عَلَيهِ؟.

ومنها: أن ييسر الله لطالب العلم العمل بمقتضى ذلك العلم إذا قصد بتعلمه وجه الله، فيجعله الله سببًا لهدايته والانتفاع به والعمل به، وذلك من طُرق الجنة الموصلة إليها.

ومنها: أن الله -تعالى- ييسر لطالب العلم الذي يُطلبه للعمل به عُلومًا أخرى ينتفع بها؛ فيكون طريقًا مُوصلاً إلى الجنة، وهذا كما قيل: مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

وكما يقال: ثوابُ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا .

وإلى هذا أشار بقوله تعالى: {وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} .

وقوله: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} .

فمن التمس العلم ليهتدي به زاده الله هدىً وعلومًا نافعةً، تُوجب له أعمالاً صالحةً، وكل هذه طُرُقٌ موصلةٌ إلى الجنة.

ومنها: أن الله تعالى قد ييسر لطالب العلم الانتفاع به في الآخرة، وسلوك الطريق الحسنى المفضي إلى الجنة وهو الصراط وما بعده، وما قبله من الأهوال العظيمة والعقبات الشديدة الشاقة.

وسبب تيسير طريق الجنة على طالب العلم؛ إذا أراد به وجه الله عز وجل وطلب مرضاته: أن العلم يدل على الله من أقرب الطرق وأسهلها؛ فمن سلك طريقه ولم يَعْوَّجَ عنه وصل إلى الله وإلى الجنة من أقرب الطرق وأسهلها، فتسهلت عليه الطرق الموصلة إلى الجنة كلها في الدنيا وفي الآخرة.

ومن سلك طريقًا يظنه طريق الجنة بغير علمٍ، فقد سلك أعسر الطرق وأشقها، ولا يوصل إلى المقصود مع عُسرةٍ شديدةٍ.

فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع، الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه، وبه يُهْتدى في ظلمات الجهل والشبه والشكوك، وقد سمى الله كتابه نورًا يهتدى به في الظلمات.

كما قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .

وقد ضرب النبي ﷺ مَثَلَ مَنْ حمل العلم الذي جاء به بالنجوم التي يُهتدى بها في الظلمات.

كما في المسند عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا طُمِسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ .

وهذا مثلٌ في غاية المطابقة؛ لأنَّ طريق التوحيد والعلم بالله تعالى وأحكامه، وثوابه وعقابه لا يُدرك بالحس، إنما يُعرف بالدليل، وقد بَيَّن ذلك كله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

فالعلماء بما أنزل الله على رسوله ﷺ هم الأدلاء الذين يُهتدى بهم في ظلمات الجهل والشبه والضلال، فإذا فُقدوا ضَلَّ السالك.

وقد شَبَّهَ العلماءَ بالنجوم، والنجوم في السماء، فيها ثلاث فوائد: يهتدى بها في الظلمات، وهي زينةٌ للسماء، ورجومٌ للشياطين الذين يسترقون السمع منها.

والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة: بهم يهتدى في الظلمات، وهم زينةٌ للأرض، وهم رجومٌ للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويدخلون في الدين ما ليس منه من أهل الأهواء.

وما دام العلم باقيًا في الأرض فالناس في هُدى، وبقاء العلم بقاء حملته؛ فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إنَّ الله لا يقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا ينْتزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجالِ، ولكِنْ يُذْهِبُ العِلْمَ بِذهابِ العُلماءِ، فإذا لَمْ يبْق عالِمٌ اتّخذ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا فسُئِلُوا فأفْتوْا بِغيْرِ عِلْمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا».

وخرج الترمذي من حديث جبير بن نفيرٍ، عن أبي الدرداء قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فقال: «هَذَا أوانُ يُخْتلسُ العِلْمُ مِن النّاسِ حتّى لا يقْدِرُوا مِنْهُ على شيْءٍ»، فقال زِيادُ بْنُ لبِيدٍ: كيْف يُخْتلسُ مِنّا العِلْمُ، وقد قرأْنا القُرْآن؟! فواللهِ لنقْرأنَّهُ ولنُقْرِئنَّهُ نِساءنا وأبْناءنا، فَقَالَ: «ثَكِلتْك أُمُّك يا زِيادُ، إنْ كُنْتُ لأعُدُّك مِنْ فُقهاءِ المدِينةِ، هذِهِ التّوْراةُ والإنْجِيلُ عِنْد اليهُودِ والنّصارى، فَمَاذَا تُغْنِي عنْهُمْ؟!» قال جُبيْرٌ بْنُ نفير: فلقِيتُ عُبادة بْن الصّامِتِ فقُلْتُ: ألا تسْمعُ ما يقُولُ أبُو الدّرْداءِ؟ فأخْبرْتُهُ بِالّذِي قال، قال: صدق أبُو الدّرْداءِ، لَوْ شِئْتُ لأُخْبَرْتُكَ بِأَوّلِ عِلْمٍ يُرْفعُ مِن النّاسِ: الخُشُوعُ، يُوشِكُ أنْ تدخُل مسْجِد الجامِعِ فلا ترى فِيهِ خاشِعًا.

وخرجه النسائي من حديث جبير بن نفيرٍ، عن عوف بن مالكٍ، عن النبي ﷺ، بنحوه وفي حديثه: فذكر ﷺ ضلالة الْيهُودِ والنّصَارَى عَلَى مَا فِي أيْدِيهِمْ مِنْ كِتابِ اللهِ. قال جُبيْر: فَلَقِيتُ شَدَّادَ بْن أوْسٍ فحدّثْتُهُ بِحدِيثِ عوْفٍ، فقال: صدق، ألا أُخْبِرُك بِأوّلِ ذلِك؛ يُرْفعُ الْخُشُوعُ حتّى لا تَرَى خاشِعًا.

وخرج الإمام أحمد من حديث زياد بن لبيد، عن النبي ﷺ أنَّه ذَكَرَ شيئًا فقال: ذاك عِنْد أوانِ ذِهابِ الْعِلْمِ . فذكر الحديث، وقال فيه: «أو ليْس الْيهُودُ والنّصارى يقْرءُون التّوْراة والْإِنْجِيل لا يعْملُون بِشيْءٍ مِمّا فِيها»! ولم يذكر ما بعدها.

ففي هذه الأحاديث أن ذهاب العلم بذهاب العمل، وأن الصحابة فَسَّرُوا ذلك بذهاب العلم الباطن من القلوب وهو الخشوع.

وكذا رُوي عن حذيفة: إنَّ أوَّل ما يُرْفعُ مِن العِلْمِ الخُشُوعُ .

فإن العلم علمان كما قال الحسن: عِلْمُ اللِّسانِ، فذاك حُجّةُ اللهِ على ابْنِ آدمِ، وعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فذاك الْعِلْمُ النافِعُ. وروي عن الحسن مرسلًا عن النبي ﷺ.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: إِنَّ أَقْوامًا يقرءُون الْقُرْآن لا يُجاوِزُ تراقِيهُمْ، ولكِنْ إِذا وقع فِي الْقلْبِ فرسخ فِيهِ نَفَعَ.

فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأَوْقَرَ فيه معرفة الله تعالى وعظمتَه وخشيته وإجلاله وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح كلها تبعًا لخشوعه.

وفي صحيح مسلمٍ عن النبي ﷺ أنَّه كان يقول: إِنِّي أَعُوذُ بالله مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ .

وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علمٌ غير نافع.

وروي عنه ﷺ: أَنّهُ كَانَ يَسْأَلُ اللهَ عِلْمًا نَافِعًا .

وفي حديث آخر قال: «سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» .

وأما العلم الذي على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم.

كما قال النبي ﷺ: والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيكَ .

فإذا ذهب من الناس العلم الباطن بقي الظاهر على الألسنة حجةً، ثم يذهب هذا العلم الذي هو حجةٌ بذهاب حملته، ولا يبقى من الدين إلا اسمه فيبقى القرآن في المصاحف ثم يُسري به في آخر الزمان فلا يبقى منه في المصاحف ولا في القلوب شيءٌ.

الشرح:

شرع المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يبين معاني هذا الحديث العظيم في فضل طلب العلم وابتدأ ذلك ببيان قوله ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله له به طريقًا إلى الجنة**»، وفي رواية: «**سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**»، وانتظم في بيانه الذي ذكره مسائل ثلاث:

أولاها:

بيان معنى الطريق المذكور في هذا الحديث.

فبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن الطريق المذكور هاهنا يحتمل أحد معنين:

أحدهما : أن يكون المقصود به الطريق الحسي، وهو نقل الأقدام بالمشي إلى حلق الذكر ومجالس العلم في المساجد وغيرها.

والثاني: الطريق المعنوي، والمراد به السبيل التي ينال بها العلم، من حفظٍ وفهمٍ وجمعٍ لكتبه -- (٣٥:٣٤) – لها فيحصل للعبد بذلك سولك طريقٍ توصل إليه ، إلا أن هذه طريقٌ من جهة المعنى لا من جهة الحس.

وهذا الحديث يشمل هذا وهذا، فإن كلًّا منهما يسمى طريقًا، وكلٌّ منهما حقيقٌ بأن يكون مندرجًا في قوله ﷺ «**من سلك طريقًا**» لأن ناقل الأقدام كناقل الأقلام، فنقل الأقدام في الطريق الحسي كنقل الأقلام بالنسخ والحفظ والكتابة في الطريق المعنوي.

والمسألة الثانية:

بيان الجزاء المترتب على سلوك طريق العلم:

وهو أن الله سبحانه وتعالى يسهل لصاحبه بذلك السلوك طريقًا إلى الجنة، وهذا التسهيل المذكور في هذا الحديث بين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنه يحتمل أربعة معاني:

المعنى الأول: أن يكون المراد بذلك هو تسهيل العلم، فيسهل للعبد بسلوك طريقه الوصول إليه، فيهونه الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ له، ويعينه عليه، كما قال تعالى في نظيره: {ولقد يسيرنا القرءا ... مدكر}

والثاني: أن يكون المراد بالتيسير تيسير العمل بالعلم فيفتح الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ للعبد العمل بما تعلمه من العلوم، فيكون في ذلك حفظًا لعلمه وزيادةً من الخير، فإن العمل بالعلم من أعظم ما يحفظ به العلم، كما قال وكيع بن الجراح: كنا نستعين على العلم بالعمل.

يعني نستعين بالعمل بما تعلمنا على حفظ ذلك العلم.

والمعنى الثالث: أن يكون المراد بالتسهيل الزيادة فيه.

فإن طالب العلم يدخل في فنٍّ ثم في سلوك هذا الطريق يمده الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالزيادة فيه ويورثه علمًا لم يعلمه، ولم يدخل فيه بعد؛ لأجل بركة ما دخل فيه؛ فإن ثوب الحسنة الحسنة بعدها، والحسنة تجر أختها، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من فضله إذا هدى عبدًا زاده هدايةً، وإذا رزقه إيمانًا زاده إيمانًا، وإذا وفقه إلى طريق ثباتٍ زاده تثبيتًا.

والمعنى الرابع: أن يكون المراد بذلك تسهيل انتفاعه به في الآخرة، فيسهل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لطالب العلم الانتفاع به في الآخرة، فيكون هذا العلم قائدًا له إلى جنات النعيم، مهونًا عليه أهوال يوم القيامة وعقباته الشديدة.

والمسألة الثالثة:

الكشف عن سبب تيسير طريق الجنة على طالب العلم.

فبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ييسر لطالب العلم بسلوكه طريق العلم سلوك طريق إلى الجنة؛ لأن العلم هو أقرب الطرق الدالة على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعث إلينا رسلًا وأنبياء؛ إذ العقول لا تستقل بمعرفة ما يجب له، ثم إن هؤلاء الأنبياء جاؤوا بوحيٍّ منه بما يجب علينا من عبادته في التوحيد وغير ذلك من أبواب التأله، ولا سبيل إلى عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا بمعرفة الوحي الذي جاء به الأنبياء، وذلك هو العلم، فصار العلم هو أقرب الطرق إلى معرفة ما يجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حقٍّ.

وإذا سلك الإنسان غير هذا الطريق فإنه قد يسلك طريقًا شاقًّا صعبًا يوصله إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وربما لا يوصله ذلك الطريق فيقع في الضلال ويستوجب الغضب ويستحق المقت من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ لأنه لم يعمل بعلمٍ بل عمل بغير علمٍ فربما صرف شيئًا لله يتوهم أنه حقه، وليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحقٍّ، وربما زهد في شيءٍ من حقوق الله ﷻ لجهله به، فصار العلم هو أسهل الطرق وأبينها وأوضحها إلى الجنة؛ لأنه هو الطريق الذي يستبين به حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأجل هذا صار العلم نورًا والجهل ظلامًا ؛ لأن نور العلم يهدي إلى معرفة الله ومعرفة أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، وأما الجهل فإنه يظلم على صاحبه الطريق فلا يهتدي إلى معرفة الله ولا إلا معرفة أمره.

ومن هنا شاع في النصوص نسبة العلم إلى النور ونسبة الجهل إلى الظلام، كم في الآي والأحاديث التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وإذا كان العلم نورًا فإن من أخذ بهذا النور صار حاملًا لمشعلًا من مشاعله، فالعلماء صار بأيديهم مشاعل النور لأنهم اقتبسوا نور العلم فصاروا أدلاء للخلق يهتدون بهم في الظلمات، ويخرجون من معرة الجهل والشبه والضلال إلى نور الهداية والتوحيد والإيمان.

وإذا فقدت هذه المشاعل أظلم الطريق، كإنسانٍ جلس في مكانٍ مضاء، فانقطعت الكهرباء فأظلم عليه المكان فصار لا يدري بما حوله، وكذلك إذا انطفأت مشاعل العلم وقع ظلام الجهل والضلالة والحيرة والشبهة فأظلمت على الناس أبصارهم وأظلمت عليهم بصائرهم.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن ما وقع في النصوص من تشبيه العلماء بالنجوم، وهي من الجنس الدال على النور أن تشبيه العلماء بذلك لما في ذلك من الفوائد المشابهة لفوائد النجوم؛ لأن النجوم يهتدى بها في الظلمات وهي زينةٌ للسماء ورجومٌ للشياطين، وكذلك العلماء يهتدى بهم في الظلمات، وهم زينةٌ للأرض، وهم رجوم شياطينها من شياطين الإنس والجن.

وإذا ذهب العلماء ذهبت منافعهم ووقع الناس في الجهل وانطمس العمل بينهم لأنهم لا يعرفون الطريق الموصل إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ، ولهذا فإن الله سبحانه و تعالى إذا قبض العلماء في آخر الزمان ارتفع العلم، حتى صار الناس لا يصلحون لحمله فعندئذٍ يسرى بأصل العلم، وهو القرآن الكريم فلا يبقى منه في المصاحف شيءٌ ولا في الصدور حرفٌ كما ثبتت بذلك الأحاديث والآثار ، وانعقد إجماع أهل السنة على رفع القرآن في آخر الزمان على هذا المعنى، كما بسطه الضياء المقدسي في كتابه «اختصاص القرآن الكريم بعوده إلى الرحمن الرحيم».

وإذا مات العلماء وانطمس العلم عند ذلك امتنع العمل.

وبين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن العلم الذي يراده ويطلب وفيه البركة، إنما هو علم الباطن الذي يوجب الخشية والخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ والانقياد له؛ لأنه العلم الذي يباشر القلوب فينير ظلمتها ويلين قسوتها ويقربها إلى ربها سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا هو نعت العلم النافع، فالعلم النافع هو العلم الذي يباشر القلب فيحمل صاحبه على الخير، وما كان على غير هذا الوصف فإنه ليس بعلمٍ نافعٍ ، ولأجل هذا أرشد النبي ﷺ إلى سؤال العلم النافع وإلى التعوذ من ضده، فقال فيما رواه النسائي في الكبرى، وابن ماجه بسندٍ حسنٍ قال: «**سلوا الله علمًا نافعًا، وتعوذوا بالله من علمٍ لا ينفع**»، ففي هذا الحديث الإرشاد إلى أن العلم منه علمٌ نافعٌ ، ومنه علمٌ لا ينفع، وأن المطلوب الأعظم هو العلم الذي ينفع، وأن المذموم الأرذل هو العلم الذي لا ينفع، وأن بركة العلم إنما تكون بنفعه لا بجمه، وأن نفعه لا يكون بمجرد أخذه، بل يكون بمباشرته للقلب، حتى يورث ذلك القلب خشيةً وانكسارًا وأخباتًا وإقبالاً على

الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأما العلم الذي لا يصل إلى شغاف القلب ولا يعمل عمله فيه، وإنما يجري على اللسان فإنما يكون حجةً لله سبحانه وتعالى على ابن آدم، كما قال النبي ﷺ فيما جاء في الصحيح: «**والقرآن حجةٌ لك أو عليك**»، فيكون حجةً لك إذا كان حاملًا لك على مقتضاه، ويكون حجةً عليك إذا كان على لسانك ولم يلامس مقتضاه قلبك فلم يكن له أثرٌ من خشيةٍ وخشوعٍ وإنابةٍ وخوفٍ وإقبالٍ على الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن هنا قَسَّمَ من قَسَّمَ من العُلَمَاءِ العلم إلى باطن وظاهر، فالباطن: ما باشر القلوب فأثمر لها الخشية والخشوع، والتعظيم والإجلال، والمحبة والأنس والشوق.

والظاهر: ما كان على اللسان، فبه تقوم حجة الله على عباده.

وكتب وهب بن منبهٍ إلى مكحولٍ: إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ أَصَبْتَ بِمَا ظَهَرَ لَكَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ شَرَفًا فَاطْلُبْ بِمَا بَطَنَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ مَحَبَّةً وَزُلْفَى .

وفي روايةٍ أخرى أنَّه كَتَبَ إليه: إِنَّك قد بلغت بِظَاهِرِ عِلْمِك عِنْدَ النَّاسِ منْزِلةً وشَرَفًا، فَاطْلُبْ بباطِنِ عِلْمِك عِنْد اللهِ مَنْزِلةً وزُلْفَى، واعْلَمْ أن إِحْدى الْمنْزِلتيْنِ تَمْنعُ الْأُخْرى .

فأشار وهبٌ بعِلم الظاهر إلى علم الفتاوى والأحكام، والحلال والحرام، والقصص والوعظ وهو ما يظهر على اللسان.

وهذا العلم يوجب لصاحبه محبة الناس له، وتَقَدُّمه عندهم، فحذره من الوقوف عند ذلك، والركون إليه والالتفات إلى تعظيم الناس ومحبتهم؛ فإن مَنْ وَقَفَ مع ذلك فقد انقطع عن الله وانحجب بنظره إلى الخلق عن الحق.

وأشار بعلم الباطن إلى العلم الذي يباشر القلوب، فيُحدث لها الخشية والإجلال والتعظيم، وأَمَرَهُ أن يطلب بهذا المحبة من الله والقرب منه والزلفى لديه.

وكان كثيرٌ من السلف كسفيان الثوري وغيره يُقسمون العلماء ثلاثة أقسام:

عَالِمٌ بِاللهِ وَعَالِمٌ بِأمْرِ اللهِ.

ويُشيرون بذلك إلى مَنْ جمع بين هذين العلمين المشار إليهما الظاهر والباطن، وهؤلاء أشرف العلماء، وهم الممدوحون في قوله تعالى: {إِنّما يخْشى الله مِنْ عِبادِهِ الْعُلماءُ} .

وقوله: {إِنّ الّذِين أُوتُوا الْعِلْم مِنْ قبْلِهِ إِذا يُتْلى عليْهِمْ يخِرُّون لِلْأذْقانِ سُجّدًا} إلى قوله: {ويزِيدُهُمْ خُشُوعًا} .

وقال كثيرٌ من السلف: لَيْسَ الْعِلْمُ كَثْرَةَ الرِّوايةِ ولَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيةُ.

وقال بعضهم: كَفَى بِخشْيةِ اللهِ عِلْمًا، وكفى بالاغْترارِ باللهِ جهْلًا.

ويقولون أيضًا: عَالِمٌ باللهِ لَيْسَ بعالِمٍ بِأَمْرِ اللهِ.

وهم أصحاب العلم الباطن الذي يخشون الله، وليس لهم اتساعٌ في العلم الظاهر.

ويقولون: عَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللهِ.

وهم أصحاب العلم الظاهر الذين لا نفاذ لهم في العالم الباطن، وليس لهم خشيةٌ ولا خشوعٌ، وهؤلاء مذمومون عند السلف.

وكان بعضهم يقول: هَذَا هُوَ العَالِمُ الفَاجِرُ.

وهؤلاء الذين وقفوا مع ظاهر العلم ولم يصل العلم النافع إلى قلوبهم ولا شَمُّوا له رائحةً، غلبت عليهم الغفلة والقسوة، والإعراض عن الآخرة والتنافس في الدنيا، ومحبة العلو فيها والتقدم بين أهلها.

وقد مَنَعُوا إحسان الظن بِمَنْ وصل العلم النافع إلى قلبه، فلا يُحبونهم ولا يجالسونهم، وربما ذموهم وقالوا: ليسوا بعلماء، وهذا من خداع الشيطان وغروره، ليحرمهم الوصول إلى العلم النافع الذي مدحه الله ورسوله، وسلف الأمة وأئمتها.

ولهذا كان علماء الدنيا يبغضون علماء الآخرة، ويسعون في أذاهم جهدهم، كما سعوا في أذى سعيد بن المسيب والحسن وسفيان ومالك وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وذلك لأن علماء الآخرة خلفاء الرسل، وعلماء السوء فيهم شَبَهٌ من اليهود، وهم أعداء الرسل وقتلة الأنبياء ومن يأمر بالقسط من الناس، وهم أشد الناس عداوةً وحسدًا للمؤمنين، ولشدة محبتهم للدنيا لا يُعظمون علمًا ولا دينًا، وإنما يُعظمون المال والجاه والتقدم عند الملوك.

كما قال بعض الوزراء للحجاج بن أرطاة: إنَّ لَكَ دِينًا وإنَّ لَكَ فِقْهًا . فقال الحجاج: أَفَلاَ تَقُولُ إنَّ لَكَ شَرَفًا وإنَّ لَكَ قَدْرًا . فقال الوزير: وَاللهِ إنَّكَ لَتُصَغِّرُ مَا عَظَّمَ اللهُ وَتُعَظِّمُ مَا صَغَّرَ اللهُ .

وكثيرٌ ممن يدعى الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر، الذي هو الشرائع والأحكام، والحلال والحرام ويطعن في أهله ويقولون: هم محجوبون وأصحاب قشور، وهذا يُوجب القدح في الشريعة، والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها.

وربما انحل بعضهم عن التكاليف، وادَّعى أنها للعامة، وأما من وصل فلا حاجة له إليها، وأنها حجابٌ له، وهؤلاء كما قال الجُنيد وغيره من العارفين: وصلوا ولكن إلى سَقَرَ.

وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام.

ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يُتَلَقَّى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة، وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات، فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة، حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يُوجب صلاح القلوب وقُربها من علام الغيوب، وأوجب لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية، والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر، فضلوا وأضلوا.

فظهر بهذا أن أكمل العلماء وأفضلهم: العلماء بالله وبأمره الذين جمعوا بين العلمين وتلقوهما معًا من الوحيين -أعني: الكتاب والسنة- وعرضوا كلام الناس في العِلمين معًا على ما جاء في الكتاب والسنة، فما وافق قبلوه، وما خالف ردوه.

وهؤلاء خلاصة الخلق، وهم أفضل الناس بعد الرسل، وهم خلفاء الرسل حقًّا، وهؤلاء كثيرٌ في الصحابة، كالخلفاء الأربعة، ومعاذٍ، وأبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعودٍ، وابن عمر، وابن عباسٍ وغيرهم.

وكذلك فيمن بعدهم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاءٍ، وطاوس، ومجاهدٍ، وسعيد بن جبيرٍ، والنخعي، ويحيى بن أبي كثير.

وفيمن بعدهم كالثوري، والأوزاعي، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين.

وقد سماهم علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: العلماء الربانيين.

يُشير إلى أنّهم الربانيون الممدوحون في غير موضع من كتاب الله -عز وجل-؛ فقال: النّاسُ ثلاثةٌ: عالِمٌ ربّانِيٌّ، ومُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ، وَهَمَجٌ رِعاعٌ ....

ثم ذكر كلامًا طويلاً وصف فيه علماء السوء والعلماء الربانيين، وقد شرحناه في غير هذا الموضع.

الشرح:

بعد أن بين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن العلم علمان: علمٌ نافعٌ، وعلمٌ غير نافعٍ، وحقق أن العلم النافع هو علم الباطن، وأن العلم غير النافع هو علم الظاهر ، ونبه على أن المراد بعلم الباطن، هو العلم الذي يلامس القلب، فيورث صاحبه الخشية والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجعل فيه محبة الله

ورجاءه والأقبال عليه والوثوق بوعده والخوف من وعيده، ذكر أن هذا جر إلى ترتيب العلماء على طبقات ثلاث:

فالطبقة الأولى: عالمٌ بالله عالمٌ بأمر الله.

والطبقة الثانية: عالمٌ بأمر الله غير عالمٍ بالله.

والطبقة الثالثة: عالمٌ بأمر الله غير عالمٍ بالله.

وهذه الطبقات الثلاث جاءت في كلام جماعةٍ من السلف رحمهم الله تعالى، منهم سفيان الثوري وغيره.

فالطبقة الأولى:

هي طبقة كمل الخلق، من أصحاب النبي ﷺ وأئمة الهدى المقتدى بهم، ممن كان له معرفة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتعظيمه وإجلاله ودرك ما له من الكمالات وما يلزم له من العبودية، والإقرار بالربوبية مع معرفة أحكام الشرع في العبادات والأقوال والأعمال والعقائد.

ووراء ذلك طبقة ثانية:

وهي طبقة قومٍ شغلوا بالعلم بأمر الله دون العلم بالله، وهم المشغولون بالعلم الظاهر كأحكام الحلال والحرام.

ووراء هؤلاء طبقة تقابلهم :

وهم المشغلون بعلم الباطن من أحوال القلوب وعلل النفس وآفاتها، دون علمٍ بما يلزمهم من أحكام الشرع في الحلال والحرام.

وما أخذت طائفة بشيءٍ دون شيء إلا ضلت، فإن الآخذين بعلم الظاهر وهو الواقف مع العلم بأمر الله قد حرموا المعرفة التامة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قلوبهم، كما أن الذين اشتغلوا بمعرفة الله ﷻ والنظر في دقائق القلوب وأحوالها وتقلبات النفوس وآفاتها حرموا معرفة ما ينبغي من عبادة الله سبحانه وتعالى، فضل هؤلاء وضل هؤلاء.

والناجون هم كمل الخلق المقتدون بطريقة النبي ﷺ في رعاية العلم بالله والعلم بأمره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيجعلون في قلوبهم طلب تعظيم الله وإجلاله ومعرفته والاطلاع على جليل أفعاله وجليل صفاته، كما

يشتغلون بمعرفة ما أوجب الله عليهم من أحكام الظاهر في الحلال والحرام وأبواب الديانة، ويكون لهؤلاء الكمل من المنصب والحظوة عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعند خلقه ما لا يكون لغيرهم، فيحصل النفع بهم أكثر من الانتفاع بغيرهم، ويكون لهم من المقام الحميد ما لا يكون لغيرهم، وهؤلاء هم علماء الآخرة على الحقيقة، وأما الأولون فإنهم وإن عرفوا أمر الله عند طائفةٍ أو عرفوا الله عند طائفة أخرى فهؤلاء على الحقيقة إنما هم علماء الدنيا ؛ لأنهم لا يحملون علمًا نافعًا بل يحملون علمًا قاصرًا عن النفع، فقد أخلت كل طائفة بما يجب عليها من أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أو معرفته عَزَّوَجَلَّ.

والمقصود ها هنا أن التماس العلم سببٌ موصلٌ إلى الجنة.

وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: «إِذا مررْتُمْ بِرِياضِ الجنّةِ فارْتعُوا»، قالُوا: وما رِياضُ الجنّةِ؟! قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ» .

وكان ابن مسعود إذا ذكر هذا الكلام يقول: أَمَا إِنِّي لاَ أَعْنِي القُصَّاصَ ولكِنْ حِلَقَ الفِقْهِ .

وروي عن أنسٍ معناه أيضـًا.

وقال عطاءٌ الخراساني: مجَالِسُ الذِّكْرِ مجَالِسُ الحَلالِ والحَرَامِ، كَيفَ تَشْتري وَتَبِيعُ، وتُصَلِّي وتَصُومُ، وتنْكِحُ وتُطلِّقُ، وتَحُجُّ وأشْباهُ هذا .

وقال يحيى بن أبي كثيرٍ: دَرْسُ الفِقْهِ صَلاةٌ.

وكان أبو السَّوَّار العدوي في حلقته يتذاكرون العلم ومعهم فتى شاب فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ، فَغَضِبَ أَبُو السُّوارِ، وَقَالَ: وَيْحَكَ، فِي أَيِّ شَيءٍ كُنَّا إِذًا؟!

والمراد بهذا أن مجالس الذكر لا تختص بالمجالس التي يُذكر فيها اسم الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه؛ بل تشمل ما ذُكر فيه أَمْرُ الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه، فإنه ربما كان هذا الذكر أنفع من ذلك؛ لأنّ معرفة الحلال والحرام واجبةٌ في الجملة على كل مسلمٍ، بحسب ما يتعلق به في ذلك، وأما ذِكر الله باللسان، فإن أكثره يكون تطوعًا، وقد يكون واجبًا كالذكر في الصلوات المكتوبة.

وأما معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، وما يحبه ورضاه، وما يكرهه وينهى عنه فيجب على كل من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه.

ولهذا روى: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» .

فإنه يجب على كل مسلمٍ معرفة ما يحتاج إليه في دينه، كالطهارة والصلاة والصيام.

ويجب على من له مالٌ معرفة ما يجب عليه في ماله من زكاةٍ ونفقةٍ، وحجٍّ وجهادٍ.

وكذلك يجب على كل من يبيع ويشتري أن يتعلم ما يحل ويحرم من البيوع.

كما قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لَا يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ . خرجه الترمذي .

ويروى بإسنادٍ فيه ضعفٍ عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: الفِقْهُ قَبْلَ التِّجَارَةِ، إِنَّهُ مَنِ اتَّجَرَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّهَ ارْتَطَمَ فِي الرِّبَا ثُمَّ ارْتَطَمَ .

وسُئل ابن المبارك: ما الذي يجب على الناس من تعلم العلم؟ قال: أن لا يُقدم الرجل على شيءٍ إلا بعلمٍ يسأل ويتعلم، فهذا الذي يجب على الناس من تعلم العلم، ثم فسره وقال: لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيهِ وَاجِبٌ أَنْ يَتَعَلَّمَ الزَّكَاةَ، فَإِذَا كَانَ لَهُ مَائَتَا دِرْهَمٍ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَمْ يُخْرِجُ وَمَتَى يُخْرِجُ وَأَيْنَ يَضَعَ وَسَائِرُ الأَشْيَاءِ عَلَى هَذَا .

وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الرجل: مَا يَجِبُ عَلَيهِ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ؟ فقال: مَا يُقِيمُ بِهِ الصَّلواتِ وَأَمَرَ دِينِه مِنَ الصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ، وَذَكَرَ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ. وقال: يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ذَلِكَ.

وقال أيضـًا: الَّذِي يَجِبُ عَلَى الإِنسَانِ مِنَ العِلْمِ مَا لاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي صَلاَتِهِ وَإِقَامَةِ دِيْنِهِ .

واعلم أن علم الحلال والحرام علمٌ شريفٌ، ومنه ما تَعَلُّمُهُ فرض عينٍ، ومنه ما هو فرض كفايةٍ.

وقد نص العلماء على أن تَعَلُّمُهُ أفضل من نوافل العبادات، منهم أحمد وإسحاق.

وكان أئمة السلف يتوقون الكلام فيه تورعًا؛ لأنَّ المتكلم فيه مُخبرٌ عن الله بأمره ونهيه، مُبلغٌ عنه شرعه ودينه.

وكان ابن سيرين إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الحَلاَلِ وَالحَرَامِ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَتَبَدَّلَ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي كَانَ.

وقال عطاء بن السائب: أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُسْأَلُ عَنِ الشَّيءِ فَيَتَكَلَّمُ وَإِنَّه لَيُرْعَدُ .

ورُوي عن مالكٍ أنّه كان إذا سُئل عن مسألةٍ، كأنَّه بين الجنة والنار.

وكان الإمام أحمد شديد التورع في إطلاق لفظ الحرام والحلال أو دعوى النسخ، ونحو ذلك مما يَجسر عليه غيرهُ كثيرًا، وأكثر أجوبته: أرجو وأخشى، أو أحب إلي، ونحو ذلك.

وكان هو ومالكٌ وغيرهما يقولون كثيرًا: لا ندري.

وكان أحمد يقول ذلك في مسألةٍ يَذْكُر للسلف فيها أقوالاً عديدةً، ويريد بقوله: لا أدري أي الراجح المفتى به من ذلك.

ومن مجالس الذكر أيضـًا: مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير كتاب الله أو يروى فيها سنة رسول الله ﷺ.

فإن كانت رواية الحديث مع تفسير معانيه، فذلك أكمل وأفضل من مجرد رواية ألفاظه، ويدخل في الفقه في الدين كل علمٍ مُستنبطٍ من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ سواءً كان من علوم الإسلام التي هي

الأعمال الظاهرة والأقوال، أو من علوم الإيمان التي هي الاعتقادات الباطنة، وأدلة ذلك وبراهينه المقررة في الكتاب والسنة، أو من علوم الإحسان التي هي علوم المراقبة والمشاهدة بالقلب، ويدخل في ذلك علم الخشية والمحبة والرجاء والإنابة، والصبر والرضا، وغير ذلك من المقامات.

وكل ذلك قد سماه النبي ﷺ في حديث سؤال جبرائيل له عنه: «دينًا».

فالفقه فيه من الفقه في الدين، ومجالسه من أفضل مجالس الذكر التي هي من رياض الجنة، وهي أفضل من مجالس ذِكر اسم الله بالتسبيح والتحميد والتكبير؛ لأنها دائرةٌ بين فرض عينٍ أو فرض كفايةٍ، والذكر المجرد تطوعٌ محضٌ.

وقد دخل بعض السلف مسجد البصرة فرأى فيه حلقتين في إحداهما قاصٌّ وفي الأخرى فقيهٌ يُعلم الفقه، فصلى ركعتين واستخار الله في الجلوس إلى إحداهما، فنعس فرأى في نومه قائلاً يقول له: أو قد سويت بينهما؟! إن شئت أريناك مقعد جبرائيل -عليه السلام- من فلان- يعني: الفقيه الذي يُعلم العلم.

وسنذكر فيما بعد النصوص الدالة على فضل العلم على أنواع العبادات من الذكر وغيره -إن شاء الله تعالى-.

وكان زيد بن أسلم من جِلَّة علماء المدينة، وكان له مجلس في المسجد يذكر فيه التفسير والحديث والفقه وغير ذلك، فجاء إليه رجلٌ فقال له: إني رأيت بعض أهل السماء وهو يقول لأهل هذا المجلس: هَؤلاَءِ فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ آمِنُونَ، ثُمَّ أَرَاهُ أَنْزَلَ عَلَى أَهْلِ المَجْلِسِ حُوتًا طَرِيًّا وَوَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَجَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي رَأَيْتُ النَّبِي ﷺ وأبا بكر وعمر- رضي الله عنهما- خرجوا من هذا الباب والنبي ﷺ يقول: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى زَيدٍ نُجَالِسُهُ وَنَسْمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ. فجاء النبيُّ ﷺ حتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِكَ فَأَخَذَ بِيَدِكَ، فَلَمْ يَبْقَ زَيدٌ بَعْدَ هذِهِ الرُّؤيَا إِلاَّ قَلِيلاً حَتَّى مَاتَ رحمه الله تعالى .

ومع ما ذكرنا من تفضيل العلم على القصص؛ فالعالم لا يَستغني أحيانًا عن موعظة الناس والقصص عليهم، وإزالة القسوة عن قلوبهم، بالتذكير بالله وأيامه، فإن القرآن يشتمل على ذلك كله، والفقيه العالم حقًّا هو مَنْ فَهِم كتاب الله واتبع ما فيه.

كما قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : الفَقِيهُ حق الفقيه مَنْ لاَ يُقَنِّطِ النَّاس مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلاَ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلاَ يَدَعُ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .

وقد كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ أَحْيَانًا؛ خشية السَّآمَةِ عَلَيْهِمْ .

الشرح:

رجع المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه الجملة إلى تقرير ما سبق من أن التماس العلم سببٌ موصلٌ إلى الجنة، وذكر في تصديق هذا المعنى الحديث الذي رواه الترمذي وغيره بسندين ضعيفين، يقوي أحدهما الآخر عن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**إِذا مررْتُمْ بِرِياضِ الجنّةِ فارْتعُوا**»، قالُوا: وما رِياضُ الجنّةِ؟! قال: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**» .

فأخبر النبي ﷺ بأن حلق الذكر هي رياض الجنة ، وإنما جعلت حلق الذكر في الدنيا بمنزلة رياض الجنة لأنها موصلة للجنة التي تكون في الآخرة، فلما كانت كالسلم إليها والطريق الموصل إليها سميت باسمها ونسبت إليها، فصار اسمها: رياض الجنة.

ثم بين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى معنى حلق الذكر: فأورد عدة آثارٍ عن السلف رحمهم الله تعالى في بيان أن مجالس الذكر لا تختص بالتسبيح والتكبير والتحميد كما يتوهمه بعض الناس، بل هي تضم هذا المعنى، وتضم ما هو أعلى منه، وهو: معرفة الحلال والحرام والفقه في دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يطلق على هذا وعلى هذا كما بينه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانٍ كافٍ شافٍ في أوائل كتابه : الوابل الصيب، فمن ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: تعلم الحلال والحرام، والجلوس في مقاعد العلم.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن الموجب لتقديم معرفة الحلال والحرام على مجرد الذكر بالتسبيح والتهليل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو أن كون اسم حلق الذكر على الأول أقوى، بين أن وجه ذلك هو: قول أن التسبيح والتحميد لا يعدو كونه تطوعًا مطلقًا، وأما معرفة الحلال والحرام فإنها قد تكون فرض عينٍ وقد تكون فرض كفاية.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما نقله عن عمر وعليٍّ وابن المبارك غفر الله لهم ورحمهم، بين حد العلم الواجب، وهو الذي ذكرناه غير مرة، من أن الصحيح في حد العلم الواجب ما اختاره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مفتاح دار السعادة، والقرافي في الفروق، هو أنه: كل ما وجب العمل به فإن تقدم العلم عليه واجب.

فإذا كان للإنسان مالٌ يتجر فيه فإنه يجب عليه أن يقدم بين يديه تعلم أحكام الحلال والحرام في البيع، وإذا صار له مالٌ كثيرٌ تجب فيه الزكاة فإنه يجب عليه تعلم أحكامها.

وقد كان السلف رحمهم الله تعالى يعظمون معرفة الحلال والحرام ويتورعون في ذلك ويتوقون في الكلام فيه ورعًا.

ونقل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك آثارًا حسانًا.

ومن مجالس الذكر أيضًا غير معرفة الحلال والحرام: مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير كتاب الله أو تروى فيها سنة رسول الله ﷺ، سواءً اقترنت تلك الرواية بمعرفة ما فيها من الأحكام والتفقه فيها، والاستنباط منها، أو كانت روايةً مجردةً كجلوس المقرئ ليعلم الناس القرآن، أو إملاء المحدث الأحاديث يرونها عن النبي ﷺ، وإذا زاد على ذلك العناية بالاستنباط والفهم وحسن الاستدلال من معاني الكتاب والسنة كان ذلك أكمل في تقديم علمهما على علم غيرهما وانتفاع الناس بهذه العلوم.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنه مع ما تقدم من تفضيل العلم على مجرد الوعظ والقص على الناس فإن العالم الكامل لا يزال يتعاهد أصحابه بوعظهم وإرشادهم ونصحهم وإزالة القسوة عن قلوبهم بتذكيرهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والعلم في أصله ملين للقلب مقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن لما تكدرت العلوم بذكر الخلافيات وبيان وجوه الترجيحات مما لم يكن في الصدر الأول صار العلم مورثًا نوع قسوة، كما ذكر ذلك ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب صيد الخاطر، قال: تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به فإذا هو يقوي القلب قوةً تميل به إلى نوع قساوةٍ . انتهى كلامه.

وليس مراد ابن الجوزي العلم الذي كان عليه الصدر الأول، ولكن المراد به العلم الذي انتهى إليه الناس في هذه الأزمنة المتأخرة لما كثر الخلاف والنزاع والشقاق واحتيج إلى الترجيح والرد والإبطال في أبواب العقائد والأحكام فعند ذلك صار في العلم هذا النوع من القوة الذي يجر إلى القسوة، ولم يكن هذا موجودًا في علوم الأوائل من السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فلا غنى حينئذ عن يعتني المعلم بترقيق قلوب أصحابه بأنواع المرققات، ومن جملتها وعظهم وتذكيرهم والقص عليهم؛ طلبًا لإذهاب

هذه القسوة وتليين قلوبهم بالوعظ والإرشاد، وقد كان هذا هدي النبي ﷺ فإنه كان يتخول أصحابه بالموعظة كما ثبت في الصحيح.

ولذلك فإنك تجد في كلام العلماء الكاملين مهما تكلموا في فنٍ من الفنون سواء في فن التفسير أو الحديث أو العقيدة أو غيرها تجد في كلامهم من المعاني الجليلة في وعظ العبد وطلب إلانة قلبه وغرس خشية الله عز وجل وخوفه به تجد في ذلك لهم شيئًا عظيمًا كما تجد ذلك في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم، وحفيده في التلمذة ابن رجب، وعلامة القصيم عبدالرحمن بن الناصر بن سعدي رحمهم الله تعالى؛ فيحصل الانتفاع بكلام هؤلاء أكثر من الانتفاع بكلام غيرهم لأن يشوبون معارفهم وعلومهم بالوعظ والقص والتذكير بعظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإجلاله وخشيته.

وإذا كان هذا الأصل موجودًا عند المعلم فإنه يحصل الانتفاع بعلمه حتى وإن علَّم في العلوم التي يتوهم الناس أنه لا مدخل للوعظ فيها؛ فعلم العربية ربما حضر الإنسان مجالس كثيرة للنحو وهو لا يسمع في كلام معلمه ما يقربه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإنما صار هذا من سماتهم لأنهم شغلوا بزيدٍ وعمرٍو عن ضرب الأمثلة من كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ومن هنا نفر جماعةٌ من الصدر الأول من علوم العربية؛ لأن فيها الاشتغال بمثل هذا مما لا ينتفع به كما قيل للقاسم بن مخيمرة، لما أراد تعلم النحو: قُل ضَرَبَ زيدٌ عمرًا، فقال: لما ضربه؟، فقال المعلم: هكذا المثال، فقال: شيءٌ أوله كذب وآخره بغيٌّ لا حاجة لي فيه.

ومعنى أوله كذب؛ لأنهم يتوسعون في الأمثلة وإنما هذا في صورة كذب وليس حقيقة كذب لأن المثال يُعلم بأنه ليس بحقيقة.

وآخره بغي لأن هذه العلوم إذا خرجت من غير تليين القلوب تورث أصحابها كبرًا، ولذلك قال أبو بكر ابن الأنباري وهو أحد أهل العربية: تأملت الفسق فوجدته في الأدباء؛ يعني في المشتغلين بالعربية لأن اشتغالهم بها يجرهم إلى المجون.

ومن تأمل في السير المشتغلين بالعربية وجد ذلك، وقل مثل هذا في علم أصول الفقه فإن من نظر بعض تراجم أعلامه وجد فيهم من قسوة القلب والبعد عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شيئًا عظيمًا، وقل فوق هذا فيمن يشتغل بالعلوم العقلية المحضة؛ كالمنطق والفلسفة فيحدث له من قسوة القلب بسبب ما سماه

علمًا ما يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولو كسيت هذه العلوم بما كان عليه السلف رحمهم الله تعالى من رعاية الوعظ والقصد وإصلاح النفوس وتليين القلوب لانتفع الناس بهذه المعارف والعلوم.

فلو أن المعلم إذا أراد أن يشرح باب الإعراب لأصحابه ذكرهم بما جاء عن مالكٍ رحمه الله تعالى أنه قال: أعربنا في كثيرٍ من كلامنا فلم نلحن، ولحنا في كثيرٍ من أعمالنا فلم نعرب.

وإذا أراد المرء أن ينشر ما في كلام مالكٍ رحمه الله تعالى من العناية بالعمل والحرص على القيام به والوفاء بما أوجب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والحذر من الخروج عن مقتضى العلم لئلا يزيغ الإنسان فيلحن في عمله لوجد في ذلك معانٍ كثيرة، والمقصود أنه كلما وصلت هذه العلوم بالقرآن والسنة كلما انتفع الناس بها لأن للعلم الوارد في القرآن والسنة من النور والثناء والبهاء في النفوس ما لا يكون لكلام غير الله وغير رسوله ﷺ.

وانظر الفرق إذا قرأت كتابًا في النحو بين من يضرب مثالًا في كل بابٍ بعمرٍو وزيد، وبين ما يذكر في كل بابٍ أمثلةً من الكتاب والسنة فإن انتفاع الإنسان بالثاني أكثر بأضعاف من انتفاعه في الأول.

قوله ﷺ: «وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ»

وخرَّج ابن ماجه من حديث زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال، فقال: مَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَطْلُبُ العِلْمَ. قال: فَإِنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى بِمَا يَصْنَعُ». وخرجه الترمذي وغيره موقوفًا على صفوان.

وقد اختلف الناس في تأويل وضع الملائكة أجنحتها:

فمنهم من حمله على ظاهره، وأن المراد فرش الأجنحة وبسطها لطلاب العلم لتحملهم عليها إلى مقاصدهم من الأرض التي يطلبون فيها العلم؛ إعانةً لهم على الطلب وتيسيره عليهم.

وقال: وقد سمع هذا الحديث بعض الملحدين، فقال لطلبة العلم: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها. يستهزئون بذلك، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط .

وروي عن آخر قال: لأكسرن أجنحة الملائكة. فصنع له نعلاً طرقها بمسامير كثيرة، فمشى بها إلى مجلس العلم فجفت رجلاه ووقعت فيهما الأكلة.

ومنهم من فسر وضع الملائكة أجنحتها بالتواضع لهم، والخضوع لطلاب العلم كما في قوله تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} .

وفي هذا نظر؛ لأنَّ للملائكة أجنحة حقيقة بخلاف البشر.

ومنهم من فسر ذلك بأن الملائكة تحف بأجنحتها مجالس الذكر إلى السماء كما جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وورد مثله في بعض ألفاظ حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه مرفوعًا: إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَظِلّه بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يُطْلَبُ .

ولعل هذا القول أشبه، والله أعلم.

الشرح:

ذكر المصنف رحمه الله تعالى بيان قوله ﷺ: «وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ»

فذكر في ذلك ثلاثة أقوال:

أولها: أن المراد فرش الأجنحة وبسطها لتحمل الملائكة عليها طلاب العلم إلى مقاصدهم من الأرض.

والقول الثاني: أن المراد بذلك وضع الملائكة أجنحتها على وجه التواضع والخضوع لأهل العلم.

وثالثها: أن معنى ذلك أن الملائكة تحف بأجنحتها مجالس الذكر إلى السماء؛ كما جاء صريحًا في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ في صحيح مسلمٍ وفيه أن النبي ﷺ قال: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ» ثم ذكر أنواعًا من الجزاء فذكر منها: «وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ».

وهذا القول كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى أشبه بكونه هو المعنى المراد؛ لأن الأحاديث يفسر بعضها ببعض كما قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: « الحديث يُفَسِّر بعضه بعضًا» فحملُ الوضع على الحث أقوى لأنه هو الذي جاء مبينًا في بعض الأحاديث عن النبي ﷺ؛ فوضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم هو حفها لهؤلاء الطلبة في مجالس العلم والذكر.

قوله ﷺ: «**وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى الحِيتَانُ فِي جَوفِ المَاءِ**».

قد أخبر الله في كتابه باستغفار ملائكة السماء للمؤمنين عمومًا بقوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}.

وقوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} فهذا للمؤمنين عمومـًا.

فأما العلماء فيستغفر لهم أهل السماء وأهل الأرض حتى الحيتان في البحر.

وخرج الترمذي من حديث أبي أمامة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ فِي البَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ**» وصححه الترمذي.

وخرج الطبراني من حديث جابر، عن النبي ﷺ قال: «**مُعَلِّمُ النَّاسِ الْخَيْرَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيءٍ حَتَّى الحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ**».

ويروى من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، يُحِبُّهُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الحِيتَانُ فِي البَحْرِ إِذَا مَاتُوا إِلَى يومِ الْقِيَامَةِ**».

وورد الاستغفار أيضًا لطالب العلم؛ ففي مسند الإمام أحمد عن قبيصة بن المخارق قال: أَتَيْتُ النَّبِي ﷺ فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قُلْتُ: كَبُرَ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَأَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مَا يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، قال: «**يَا قَبِيصَةُ، مَا مَرَرْتَ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ إِلَّا اسْتَغْفَرَ لَكَ**».

وقد دل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}.

على أن الله وملائكته يصلون على أهل الذكر، والعلم من أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره.

وخرَّج الحاكم من حديث سليم بن عامر قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي، كَأَنَّ المَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْكَ كُلَّمَا دَخَلْتَ وَكُلَّمَا خَرجْتَ، وَكُلَّمَا قُمْتَ وَكُلَّمَا جَلَسْتَ فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: اللَّهُمَّ غفرًا، دَعُونَا عَنْكُمْ، وَأَنْتُمْ لَوْ شِئْتُمْ لَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلائكةُ. ثُمَّ قَرَأَ: {يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} .

وقد ذكر بعضهم السر في استغفار دواب الأرض للعلماء، وهو أن العلماء يأمرون الناس بالإحسان إلى المخلوقات كلها، وبإحسان قتل ما يجوز قتله أو ذبحه من الحيوانات، فيتعدى نفعهم إلى الحيوانات كلها، فلذلك يستغفرون لهم.

ويظهر فيه معنًى آخر وهو أن سائر المخلوقات مطيعةٌ لله، قانتةٌ له، مسبحةٌ له غير عصاة الثقلين: الجن والإنس، فكل الخلق المطيعين لله يحبون أهل طاعته، فكيف به وهو يعرف الله ويعرف حقوقه وطاعته؟

فمن كانت هذه صفته، فإن الله يحبه ويزكيه ويثني عليه، ويأمر عباده من أهل السماء والأرض وسائر خلقه بمحبته والدعاء له، وذلك هو صلاتهم عليه، ويجعل له المودة في قلوب عباده المؤمنين.

كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} .

ولا تختص محبته بالحيوانات؛ بل تحبه الجمادات أيضًا.

كما جاء في تفسير قوله تعالى: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ} أن السَّماءِ والأَرضَ تَبْكِي عَلَى الْمُؤْمِنِ إِذَا مَاتَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا.

وفي الحديث: إِنَّ الْأَرْضَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا دُفِنَ: إِنْ كُنْتَ لَأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي، فَسَتَرَى إِذَا صِرْتَ إِلَى بَطْنِي صنيعي .

وإنما يبغض المؤمن والعالم عصاة الثقلين؛ لأنّ معصيتهم لله اقتضت تقديم أهواء نفوسهم على محبة الله وطاعته، فكرهوا طاعة الله وأهل طاعته، ومن أحب الله وأحب طاعته أحب أهل طاعته، وخصوصًا من دعا إلى طاعته وأمر الناس بها.

وأيضًا فإن العلم إذا ظهر في الأرض وعمل به درّت البركات ونزلت الأرزاق فيعيش أهل الأرض كلهم، حتى النملة وغيرها من الحيوانات ببركته، ويستبشر أهل السماء بما يرتفع لأهل الأرض من الطاعات والأعمال الصالحات فيستغفرون لمن كان السبب في ذلك.

وعكس هذا أن من كتم العلم الذي أمر الله بإظهاره لعنه الله وملائكته وأهل السماء والأرض، حيث سعى في إطفاء نور الله في الأرض، الذي بسبب إخفائه تظهر المعاصي والظلم والعداوة والبغي.

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} .

وقد قيل أنها نزلت في أهل الكتاب، الذين كتموا ما عندهم في كتابهم من صفة النبي ﷺ.

وكان أبو هريرة يقول: لَوْلَا آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا. وَيَتْلُو هَذِه الآيَةَ .

وفي سنن ابن ماجه عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ في قوله: {يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} قَالَ: دَوَابّ الأَرْضِ .

وقد روي هذا موقوفًا على البراء .

وروي عن طائفة من السلف قالوا: تَلْعَنُهُمْ دَوَابُّ الأرْضِ، ويقولون: مُنعنَا القَطْرَ بِخَطَايَا بَنِي آدَمَ .

فإن كتمان العلم النافع سبب لظهور الجهل والمعاصي، وذلك يوجب محو المطر ونزول البلاء، فيعم دواب الأرض، فتهلك بخطايا بني آدم، فتلعن الدواب من كان سببًا لذلك.

وقد ظهر بهذا أن محبة العلماء من الدين، كما قال علي رضي الله عنه لكميل بن زياد: وَمَحَبَّةُ العَالِمِ دِينٌ يُدَانُ بِهَا.

وفي الأثر المعروف: كُنْ عَالِمًا أَوْ متَعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا أَوْ مُحِبًّا لَهُمْ، وَلاَ تَكُنْ الخَامِسَ فَتَهْلَكَ .

قال بعض السلف عند هذا: سُبحَانَ اللهِ! لَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُمْ مَخْرَجًا.

يعني أنّه لا يخرج عن هذه الأربعة الممدوحة إلا الخامس الهالك، وهو من ليس بعالم ولا متعلم، ولا مستمع ولا محبٍ لأهل العلم، وهو الهالك.

فإن من أبغض أهل العلم أحب هلاكهم، ومن أحب هلاكهم فقد أحب أن يطفأ نور الله في الأرض ويظهر فيها المعاصي والفساد، فيخشى أن لا يرفع له مع ذلك عمل، كما قال سفيان الثوري وغيره من السلف.

وكان بعض خدم الخلفاء يبغض أبا الفرج ابن الجوزي ويسعى في أذاه بجهده فرآه بعضهم في منامه وهو يذهب به إلى النار، فسئل عن سبب ذلك فقيل له: كان يبغض ابن الجوزي.

قال ابن الجوزي: لَمَّا زَادَ تَعَصُّبُهُ وَأَذَاهُ لَجَأْتُ إِلَى اللهِ فِي كَشْفِ سَتْرِهِ، فَقَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى قَرِيبًا .

ولما قتل الحجاجُ سعيدَ بن جبير كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَى عِلمِهِ، فَمَنَعَهُمْ الانْتِفَاع بِعِلْمِهِ، فَرَئِي فِي المَنَامِ أَنَّ الحَجَّاجَ قُتِلَ بِكُلِّ قَتِيلٍ قَتَلَهُ فِي الدُّنْيَا قِتلَةً، وَقُتِلَ بِسعِيدٍ بن جُبيرٍ سَبْعِينَ قِتْلَةً .

ولهذا المعنى كان أشد الناس عذابًا من قتل نبيًّا؛ لأنّه سعى في الأرض بالفساد، ومن قتل عالمًا فقد قتل خليفة نبي، فهو ساع في الأرض بالفساد أيضـًا، ولهذا قرن الله بين قتل الأنبياء وقتل العلماء الآمرين بالمعروف في قوله تعالى: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} .

وقال عكرمة وغيره من السلف في قوله تعالى: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ إِمَامَ عَدْلٍ قَالَ: فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ شَدَّ عَلَى عَضُدَ نَبِيٍّ أَوْ إِمَامِ عَدْلٍ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا.

الشرح:

ذكر المصنف رحمه الله تعالى في هذه الجملة بيان قوله ﷺ: «وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى الحِيتَانُ فِي جَوفِ المَاءِ» .

فبيَّن رحمه الله تعالى أن هذا استغفارٌ خاص دون الاستغفار الذي يكون للمؤمنين عامةً من بعض الأجناس؛ كاستغفار الملائكة لأهل الإيمان فيكون في تخصيصهم باستغفارٍ آخر على علو قدرهم، وشرفهم وارتفاع منزلتهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فتستغفر لهم الملائكة في السماء، وتستغفر لهم المخلوقات في الأرض؛ فيجمع الله عز وجل للعلماء بين استغفار هؤلاء وهؤلاء.

و قد رويت أحاديث في أن الاستغفار يشمل أيضًا طلاب العلم ممن لم يبلغوا المرتبة العالية وهي مرتبة العالم لكن لا يثبت منها شيء، والظاهر من الأخبار أن الاستغفار مخصوصٌ بالعلماء، وإنما خُصَّ الاستغفار بالعلماء لأنهم به أحق وأولى فإنه يقع على أيديهم ما لا يقع على أيدي المتعلمين.

وقد بيَّن المصنف رحمه الله تعالى وجه ذلك فنقل قولًا، وأبدى قولًا فصار مجموع ما ذكره رحمه الله تعالى من الأقوال المبينة لسبب استغفار من في السماء ومن في الأرض للعلماء شيئين اثنين:

أحدهما: أن الإحسان الجاري بين المخلوقات كلها إنما هو في تعليم العلماء، فصار من شكر هؤلاء العلماء الاستغفار لهم.

والثاني: أن المخلوقات كلها خاضعةٌ مطيعةٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والله عز وجل يحب العلماء.

ولازم من كل مطيعًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يحب من أحبه الله عز وجل، ومن مظاهر محبة من يحبه الله عز وجل الاستغفار له، والصلاة عليه وهذا هو الواقع من هذه المخلوقات في حق العلماء؛ فصارت الصلاة والاستغفار لمعلم الخير لأجل هذين المعنيين الكريمين كلاهما.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالى أن بث العلم ونشره يورث صاحبه محبة الله عز وجل وثناءه عليه، ويأمر الله عز وجل عباده من أهل السماء والأرض أن يحبوه؛ فيكون لهؤلاء من المحبة القدر العظيم في قلوب المخلوقات حتى في الجمادات كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى.

وإنما يبغض العلماء عصاة الثقلين لأنهم يطلبون أهواء أنفسهم وموافقة مراداتها ولا يمكنون من ذلك بتعليم العلماء للناس وتمييزهم بين الخير والشر؛ فعند ذلك يقع لهؤلاء بغض العلماء.

ومن أبغض عالمًا فإنه بمنزلة من أبغض من ورثه ذلك العالم وهو النبي؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء فلا يبغض العلماء ويسعى في إلحاق الضرر بهم، ويجمع خيله ورجله لأجل الإزراء عليهم وتنقصهم إلا من لم يقم في قلبه حب النبي ﷺ مقامًا تامًا.

ثم بيَّن رحمه الله تعالى أن كتم العلم موجبٌ لما يقابل بثه؛ فإن بث العلم كما سلك يوجب محبة الناس.

وكذلك فإن كتمه يوجب بغض الخلق له حتى يبلغ بهم بغض صاحبه إلى أن يلعنه اللاعنون كما ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حق من كتم العلم، وإنما صار لهم هذا البغض الشديد واللعن؛ لأنهم في الحقيقة الساعون إلى إطفاء نور الله عز وجل في الأرض الذي هو العلم وإذا انطفأ نور الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في العلم وقع ضلال الجهل والضلالة والحيرة والشك والشبهة والريبة.

ثم أعاد المصنف رحمه الله تعالى تقرير أن محبة العلماء من الدين الذي يتدين به الإنسان لما لهم من المنزلة والحظوة والمقام، فمن كان على الهدى والسداد فإنه يحب العلماء لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ

يحبهم، وقد جعل لهم ميراثة النبوة فهم محبوبون لأجل ما صار إليهم من العلم والهدى لا لذواتهم المجردة وإنما لأجل الخير الذي هم بسبب بثه ونشره وإيضاحه للخلق.

قوله ﷺ: وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ .

وقد رُوِي هذا المعنى عن النبي ﷺ أيضًا من حديث معاذ وأبي الدرداء ، ولكن إسنادهما منقطع.

وفي هذا المثل تشبيه للعالم بالقمر ليلة البدر، وهو نهاية كماله، وتمام نوره، وتشبيه للعابد بالكواكب، وأن بين العالم والعابد من التفاوت في الفضل ما بين القمر ليلة البدر والكواكب، والسر في ذلك -والله أعلم- أن الكوكب ضوءه لا يعدو نفسه، وأما القمر ليلة البدر فإن نوره يشرق على أهل الأرض جميعًا، فيعمهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مسيرهم.

وإنما قال: على سائر الكواكب ولم يقل: على سائر النجوم؛ لأنّ الكواكب هي التي لا تسير ولا يهتدى بها، فهي بمنزلة العابد الذي نفعه مقصور على نفسه، وأما النجوم فهي التي يهتدى بها كما قال تعالى: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} .

وقال: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} .

فكذلك مَثَّلَ العلماء من أمته بالنجوم في الحديث الذي سبق ذكره.

وكذلك روي عنه أنّه قال: أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ؛ فَبِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ .

وقد قيل: إن القمر إنما يستفيد نوره من ضوء الشمس، كما أن العالم نوره مقتبس من نور الرسالة، فلذلك شُبه بالقمر ولم يشبه بالشمس.

ولما كان الرسول ﷺ سراجًا منيرًا، يشرق نوره على الأرض، كان العلماء ورثته وخلفاؤه مشبهين بالقمر عند تمام نوره وإضاءته.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يدخلون الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لأَهْلِ الأَرْضِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَضْوَأ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ .

ولا يبعد-والله أعلم- أن العلماء الربانيين من الزمرة الأولى، كما كانوا في الدنيا بمنزلة القمر ليلة البدر لأهل الأرض، وقد يشاركهم في ذلك المبرزون من العباد ولا سيما من انتفع الناس باستماع أخبارهم، ورقت القلوب عند ذكرهم، وحنت إلى اقتفاء آثارهم، وأما الزمرة الثانية فهم عموم العباد.

ولما مات الأوزاعي، وكان إمام أهل الشام في العلم مع شدة عبادته وكثرة خشيته وخوفه من الله تعالى رئي في المنام فَقَالَ: ما رأيت هناك أعظم من درجة العلم، ثم درجة المحزونين، يعني: أهل الخوف من الله والخشية والحزن.

وقد دل هذا الحديث على تفضيل العلم على العبادة تفضيلاً بينًا، والأدلة الدالة على ذلك كثيرة.

قال الله تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} .

وقال: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} .

يعني: على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم، كذا قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره من السلف.

وخرج الترمذي من حديث أبي أمامة، عن النبي ﷺ: أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» . وقال: صحيح حسن غريب.

وخرج أيضـًا هو وابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ .

وخرج ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِحَلْقَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَالْأُخْرَى يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلٌّ عَلَى خَيْرٍ، هَؤُلَاءِ يَدْعُونَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا. فَجَلَسَ مَعَهُمْ**» .

وخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد وزاد فيه بعد قوله: وَإِنَّمَا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا : هَؤُلَاءِ أَفْضَلُ .

وخرج الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: قَلِيلُ الْفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ .

وخرج البزار والحاكم وغيرهما بأسانيد متعددة مرفوعًا: فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ .

وفي مراسيل الزهري عن النبي ﷺ: فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ سَبْعُونَ دَرَجَةً، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ حُضْرِ جَوَادٍ مِائَةَ عَامٍ .

والآثار الموقوفة عن السلف في هذا كثيرة جدًّا:

فروي عن أبي هريرة وأبي ذر قالا: البَابُ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُل أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ تَطَوُّعًا .

وخرجه ابن ماجه من حديث أبي ذر مرفوعًا.

وروي عن أبي الدرداء قال: مُذَاكَرَةُ العِلْمِ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ.

ويروى عن أبي هريرة مرفوعًا: لأَنْ أَفْقَهُ سَاعَة أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُحيي لَيلَةً أُصَلِّيهَا حَتَّى أُصْبِحَ.

وعنه قال: لأَنْ أَعْلَمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فِي أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وعن ابن عباس- رضي الله عنه- قال: تَذَاكُرُ العِلمِ بَعضَ لَيلَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِحْيَائِهَا.

وصح عن أبي موسى الأشعري أنّه قال: لَمَجْلِسٌ أَجْلِسُهُ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَوْثَقُ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ.

وعن الحسن قال: لأَنّ أَتعَلَّمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فَأُعَلِّمُهُ مُسْلِمًا أَحبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِي الدُّنْيَا كُلُّهَا أَجْعَلُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وعنه قال: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ البَابَ مِنَ العِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ فَيكُونُ خَيرًا لَهُ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، لَوْ كَانَتْ لَهُ فَيَجْعَلُهَا فِي الآخِرَةِ.

وعنه قال: مِدَادُ العُلَمَاءِ ودَمُ الشُّهَدَاءُ مَجْرَى وَاحِدٍ.

وعنه: مَا مِن شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ اللهُ أَعْظَمُ عِندَ اللهِ فِي عَظِيمِ الثَّوَابِ مِنْ طَلَبِ عِلْمٍ، لاَ حَجَّ، وَلاَ عُمَرَةَ، وَلاَ جِهَادَ، وَلاَ صَدَقَةَ، وَلاَ عِتْقَ، وَلَوْ كَانَ العِلْمُ صُورَةً لَكَانَتْ صُورَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ صُورَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالسَّمَاءِ وَالعَرْشِ.

قال الزهري: تعلم سنة أفضلُ من عِبَادَةِ مَائَتَي سَنَة.

وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة: لَيسَ بَعدَ الفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ.

قال الثوري: لاَ نَعلَمُ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ وَالحَدِيثِ لِمَنْ حَسُنَتْ فِيهِ نِيَّتُهُ. قِيلَ لَهُ: وأَيُّ شَيءٍ النِّيَّةُ فِيهِ؟ قَالَ: يُرِيدُ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ.

وقال الشافعي: طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَةٍ نَافِلَةٍ.

ورأى مالك بعض أصحابه يكتب العِلْمَ ثم تركه وقام يصلي، فَقَالَ: عَجَبًا لَكَ! مَا الَّذِي قُمْتَ إِلَيْهِ بِأَفْضَلَ مِنَ الَّذِي تَرَكْتَهُ.

وسئل الإمام أحمد: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيكَ، أَن أُصَلِّي بِاللَّيلِ تطَوُّعًا، أَو أَجْلِسَ أنسَخُ العِلْمَ؟ قال: إِذَا كنتَ تَنسَخُ مَا تعلمَ أَمرَ دِينِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ.

وقال أحمد أيضـًا: العِلْمُ لاَ يَعْدِلُهُ شَيءٌ .

وقال المعافى بن عمران: كِتَابَةَ حديثٍ واحِدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِ لَيلَةٍ .

ومما يدل على تفضيل العِلْم على جميع النوافل أن العِلْم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة.

فإن العِلْم أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره، وهو أيضـًا أفضل أنواع الجهاد.

ويروى من حديث عبد الله بن عمر والنعمان بن بشير –رضي الله عنه– مرفوعًا : إِنَّهُ يُوزَنُ مِدَادُ العُلَمَاءِ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ فَيَرجحُ مِدَادُ العُلَمَاءِ .

وخرج الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُو فِي سَبِيلِ اللهِ حَتّى يَرجعَ .

وورد في حديث آخر : إِذَا جَاءَ المَوْتُ طَالِبَ العِلْمِ فَهُوَ شَهِيدٌ .

وقال معاذ بن جبل: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ حَسَنَة، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُدَارَسَتهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ سَبِيلُ مَنَازِلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الْأَنِيسُ فِي الْوِحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالْمُعِينُ عَلَى الضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً، تقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ حِيتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمَصَابِيحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمِ، وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ فِي الْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ والْأَبْرَارِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ الْقِيَامَ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، وَهُوَ إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءِ» .رواه ابن عبد البر.

به يُعْرَف اللهُ وَيُعْبَد، وبه يمجد ويوحد، يرفع الله بالعلم أقوامًا فيجعلهم قادة وأئمة للناس يقتدون بهم ويرجعون إلى رأيهم . في كلام أكثر من هذا. وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومما يدل على تفضيل العِلْم على العبادة: قصة آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فإن الله تعالى إنما أظهر فضله على الملائكة بالعلم، حيث علمه أسماء كل شيء واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك، فلما أنبأهم آدم بالأسماء ظهر حينئذ فضله عليهم، وقال عز وجل لهم:

{أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} .

وذكر طائفة من السلف أَنَّ الَّذِي كتمُوهُ أَنّهُمْ قالُوا فِي أنفُسهمْ: لَنْ يَخْلُقَ اللهُ خَلْقًا إِلاَّ نَحْنُ أَكرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ.

ومما يدل على فضل العِلْم أن جبرئيل عليه السلام، إنما فضل على الملائكة المشتغلين بالعبادة بالعلم الَّذِي خص به، فإنه صاحب الوحي الَّذِي ينزل به على الأنبياء –عليهم السلام–.

وكذلك خواص الرسل إنما فضلوا على غيرهم من الأنبياء –عليهم السلام– بمزيد العِلْم المقتضي لزيادة المعرفة بالله والخشية له.

ولهذا وصف الله تعالى محمدًا ﷺ في كتابه ومدحه بالعلم الَّذِي اختصه به، وامتن به عليه في مواضع كثيرة، وأمره أن يعلمه لأمته.

فأول ما ذكره بالعلم وبتعليمه في قصة إبراهيم حين دعا ربه لأهل البيت الحرام أن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ثم امتن علينا بأن بعث فينا رسولاً منا، وهو محمد ﷺ بهذه الصفة، فَقَالَ تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

وأول ما أنزل على محمد ﷺ ذكر العِلْم وفضله، وهو قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} .

وامتن على محمد ﷺ بالعلم في مواضع، كقوله تعالى: {وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} .

وأمره أن يسأل ربه أن يزيده علمًا، فَقَالَ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} .

وكان ﷺ يقول:« أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً» .

وامتن الله تعالى علينا أن بعث فينا هذا الرسول ﷺ الَّذِي يعلمنا ما لم نكن نعلم وأمرنا بشكر هذه النعمة كما قال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} .

وأخبر سبحانه أنّه إنما خلق السموات والأرض ونزل الأمر إلا لنعلم بذلك قدرته وعلمه، فيكون دليلًا على معرفته ومعرفة صفاته، كما قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} إلى قوله: {وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

ومدح الله في كتابه العلماء في مواضع كثيرة، وقد سبق ذكر بعضها، وأخبر أنّه إنما يخشاه من عباده العلماء، وهم العلماء به.

قال ابن عباس في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} .

قال: إِنَّمَا يَخَافَنِي مِنْ عِبَادِي مَنْ عَرِفَ جَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي .

فأفضل العِلْم العِلْم بالله، وهو العِلْم بأسمائه وصفاته، وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته، والتبتل إِلَيْهِ والتوكل عليه، والرضا عنه، والاشتغال به دون خلقه.

ويتبع ذلك العِلْم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك، والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وما يكرهه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربانيين، العلماء بالله، العلماء بأمر الله.

وهم أكمل ممن قصر علمه على العِلْم بالله دون العِلْم بأمره وبالعكس، وشاهد هذا النظر في حال الحسن وابن المسيب والثوري وأحمد وغيرهم من العلماء الربانيين، وحال مالك بن دينار والفضيل بن عياض ومعروف وبشر وغيرهم من العارفين.

فمن قايس بين الحالين عرف فضل العلماء بالله وبأمره على العلماء بالله فقط.

فما الظن بتفضيل العلماء بالله وبأمره على العلماء بأمره فقط، فإن هذا واضح لا خفاء به، وإنما يظن بعض من لا علم له تفضيل العباد على العلماء؛ لأنهم تخيلوا أن العلماء هم العلماء بأمر الله فقط، وأن العباد هم العلماء بالله وحده، فرجحوا العالم بالله على العالم بأمره، وهذا حق.

ونحن إنما نقول: إن العلماء بالله والعلماء بأمره أفضل من العباد، ولو كان العباد من العلماء بالله؛ لأنّ العلماء الربانيين شاركوا العباد في فضيلة العِلْم بالله؛ بل ربما زادوا عليهم فيه، وانفردوا بفضيلة العِلْم بأمر الله، وبفضيلة دعوة الخلق إلى الله وهدايتهم إِلَيْهِ، وهو مقام الرسل -عليهم السلام- وكذلك كانوا خلفاء الرسل وورثتهم كما سيأتي ذكره -إن شاء الله تعالى.

وهذا القدر الَّذِي انفردوا به عن العُبَّاد أفضل من القدر الَّذِي انفرد به العُبَّاد من نوافل العبادة، فإن زيادة المعرفة بما أنزل الله على رسوله توجب زيادة المعرفة بالله والإيمان به، وجنس المعرفة بالله والإيمان به أفضل من جنس العمل بالجوارح والأركان، ولكن من لا علم له تعظم في نفسه العبادات على العِلْم؛ لأنّه لا يتصور حقيقة العِلْم ولا شرفه، ولا قدرة له على ذلك، وهو يتصور حقيقة العبادات، وله قدرة على جنسها في الجملة.

ولهذا تجد كثيرًا ممن لا علم لديه يفضل الزهد في الدنيا على العلوم والمعارف وسببه ما ذكرناه.

وهو أنّه لا يتصور معنى العِلْم والمعرفة، ومن لا يتصور شيئًا لا يقر في صدره عظمته، وإنما يتصور الجاهل بالعلم حقيقة الدنيا، وقد عظمت في صدره، فعظم عنده من تركها.

كما قال محمد بن واسع -وقد رأى شابًّا، فقِيلَ لَهُ: هؤلاء زهاد- فَقَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ قَدْرُ الدُّنْيَا حَتَّى يُمْدَحَ مَنْ زَهِدَ فِيهَا.

وقال أبو سليمان الداراني قريبًا من هذا المعنى أيضًا، فالمفتخر بالزهد في الدنيا كأنّه يفتخر بترك نزر يسير من شيء هو أقل عند الله من جناح بعوضة، وهذا أحقر من أن يذكر، فضلًا عن أن يفتخر به.

ولهذا أيضـًا يعظم في نفوس كثير من الناس ذكر الخوارق والكرامات، ويرونها أفضل مما أعطيه العلماء من المعرفة والعلم، وإنما يتصورون حقيقة الخوارق؛ لأنها من جنس القدرة والسلطان في الدنيا، الَّذِي يعجز أكثر الناس عنه.

وأما العلماء بالله فلا تعظم هذه الخوارق عندهم؛ بل يرون الزهد فيها، وإنها من نوع الفتنة والمحنة وبسط الدنيا على العبد، فيخافون من الاشتغال بها والوقوف معها، والانقطاع عن الله عز وجل.

وقد ذكر أبو طالب المكي هذا المعنى في كتابه عن كثير من العارفين منهم: أبو يزيد، ويحيى بن معاذ، وسهل التستري ، وذو النون، والجنيد وغيرهم.

وقيل لبعضهم: إن فلانًا يمشي على الماء! فَقَالَ: مَنْ أَمْكَنَهُ اللهُ مِنْ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ فَهُوَ أَفْضَلُ .

وكان أبو حفص النيسابوري يومًا جالسًا مع أصحابه خارج المدينة، وهو يتكلم عليهم، فطابت أنفسهم فجاء أيل قد نزل من الجبل حتى برك بين يديه، فبكى بكاءً شديدًا وانزعج، فسئل عن سبب بكائه، فَقَالَ: رأيت اجتماعكم حولي وقد طابت قلوبكم، فوقع في قلبي، لو أن لي شاة ذبحتها ودعوتكم، فما تحكم هذا الخاطر حتى جاء هذا الوحش فبرك بين يدي، فخيل لي أني مثل فرعون، الَّذِي سأل ربه أن يجري له النيل فأجراه له، قلت: فما يؤمنني أن يكون الله يعطني كل حظ في الدنيا، وأبقى في الآخرة فقيرًا لا شيء لي، فهذا الَّذِي أزعجني.

فأحوال العارفين كلها تدل على أنّهم لم يكونوا يلتفتون إلى هذه الخوارق وإنما كان اهتمامهم بمعرفة الله وخشيته، ومحبته والأنس به، والشوق إلى لقائه وطاعته، والعلماء الربانيون يشاركون في ذلك ويزيدون عليهم بالعلم بأمر الله وبدعوة الخلق إلى الله.

وهذا هو الفضل العظيم عند الله وملائكته ورسله كما قال بعض السلف: مَنْ عَمِلَ وَعَلِمَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ.

الشرح:

ذكر المصنف رحمه الله تعالى بيان قوله ﷺ: وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ .

فذكر أن النبي ﷺ شبه العالم بالقمر ليلة البدر، والقمر حينئذٍ هو في نهاية كماله وتمام نوره، وشبه العابد بالكواكب.

والفضل بين البدر والكوكب ظاهرٌ لكل ذي عينين، وكذلك يكون الفضل بين العالم والعابد.

وإنما شبه العالم بالقمر ليلة البدر لأن القمر ليلة البدر يضيء بنوره الدروب، والعالم بتعليمه يضيء القلوب؛ فلأجل ما بينهما من الإنارة الكائنة في حق القمر فيما يتعلق بالطرق والمسالك، وفي حق العالم بالقلوب؛ صار العالم مشبهًا بالقمر، ولنزول رتبة العابد عنه صار مشبهًا بالكوكب.

ثم بيَّن رحمه الله تعالى أن مقتضى ذلك أن يكون النبي ﷺ أكمل الخلق إشراقًا بالنور، وأظهر ذلك من كونه ﷺ سمي سراجًا منيرًا والسراج هو الذي يشرق نوره على الأرض جميعًا، ولما كان العلماء ورثته كانوا هم المستمدين من هذا النور.

ثم استطرد رحمه الله تعالى في بيان فضل العلم على العبادة وطوَّل القول في ذلك؛ لأن هذه المسألة مما عظمت بها البلية حتى صار دهماء الناس وأكثرهم يفضلون العابد على العالم، فبيَّن رحمه الله تعالى أن دلائل الشرع جاءت بضد ذلك وعكسه، وقدمت العالم وأظهر رحمه الله تعالى فضل العالم على العابد من وجوهٍ كثيرة: تارةً بسوق الأدلة على ذلك، وتارةً بذكر جملةٍ من الأمثلة التي اقتضى الفضل فيها إظهار صاحبها على غيره بالعلم كما اتفق لآدم عليه الصلاة والسلام فإنه قُدِّمَ على الملائكة لأجل العلم، وكما اتفق لجبريل فإنه قُدم على غيره من الملائكة لأجل العلم، وكما اتفق لمحمدٍ ﷺ فإنه قُدم على غيره من الأنبياء والرسل لأجل ما معه من العلم.

وعذر المصنف رحمه الله تعالى هذا أيضًا بوجوهٍ أخر:

أن العلم هو الأصل الجامع لفضائل الأعمال جميعًا، فكل الأعمال الفاضلة إنما يستدل عليها بالعلم.

وكذلك فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد مدح العلماء في مواضع كثيرةٍ من كتابه.

فكل هذه الأدلة العامة والخاصة التي ذكرها ابن رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى تدل على فضل العلم، وأنه أكمل من العبادة.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن هذا العلم الذي فُضل إنما هو العلم بالله والعلم بأمره، كما تقدم.

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الفرق بين حال العالم بالله وبأمره وبين حال غيره من العباد، فإن العالم يقف مع الأوامر الشرعية والعابد يطلب الكرامات الإليهة، وفرقٌ بين الأثنين، فإن العالم قد وقف نفسه مع مراد

الله ، والعابد قد وقف نفسه مع مرادها، فإن الذي يتطلع إلى طلب الكرامة إنما يتطلع إلى شيءٍ يقدره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يظهر به فضل ذلك العبد، وهذا حظ العابد.

وأما العالم فإنه لا يقف مع مراد نفسه، وإنما يقف مع أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا كان العلماء لا يلتفون إلى هذه الخوارق والكرامات ولا يعظمونها؛ لعلمهم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إنما يجريها تطميناً وتبشيرًا؛ لا أنها تستقل برفع صاحبها إلى مقامٍ لم يصل إليه إلا بها، وهم يعلمون أن الرفعة إنما تكون بالعلم.

وقد رأينا هذا في العلماء، فإن العالم يظهر له من الأحوال، ويقع له من حسان الأعمال الشيء الذي يبهر العقول، ومع ذلك لا يلتفت إليه ولا يأبه به، والعابد يقع له ما هو أقل من ذلك، وتسمع منه تكرارًا وحديثًا بأنه وقعت لنا كرامةٌ في كذا وكذا، واتفق لنا كرامةٌ في كيت وكيت، فيظن السامع الجاهل أن هؤلاء أرفع رتبةً من العلماء وهذا من جهله؛ فإن العلماء لكمال إيمانهم مستغنون عن تأييدهم بمثل هذا، وهؤلاء لقلة علمهم يحتاجون إلى التثبيت بمثل هذا، ولهذا تكثر الرؤيا الصالحة في آخر الزمان لأن الفتن تكثر في آخر الزمان، فيحتاج أهل ذلك الزمان إلى التطمين والتبشير والتثبيت فيكون هذا بالرؤيا الصالحة، وكامل العلم منهم لا يحتاج إلى مثلها؛ لأنه مستغن عنها بما ثبته الله به من العلم.

ولهذا كان أول نبوة النبي ﷺ الرؤيا الصالحة، فلما كملت حاله ﷺ صار أكثر ما يأتيه هو الوحي الصادق بنزول جبريل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عليه ، ولذلك جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أكمل عمله ﷺ نازلًا بالوحي، ولم يجعل أكمل علمه ﷺ صادرًا بالرؤيا، فكان تنزيل القرآن بالوحي، ولم يقع تنزيل شيءٌ من القرآن بالرؤيا المنامية، بل ينزل جبريل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بالوحي على النبي ﷺ لأجل هذا المعنى الذي ذكرناه.

وإذا ظهر فضل العالم على العابد، فإنما المراد تفضيله على العابد بعلمٍ، فأما العابد بغير علمٍ؛ فإنه مذموم.

ولهذا شبهه السلف بالسائر على غير طريقٍ، وبأنه يُفسد أكثر مما يصلح.

وبأنه كالحمار في الطاحون، يدور حتى يهلك من التعب ولا يبرح من مكانه.

وهذا أشد ظهورًا ووضوحًا من أن يحتاج إلى بسط القول فيه.

ولنضرب هاهنا مثلاً جامعًا لأحوال الخلق كلهم، بالنسبة إلى دعوة الرسول ﷺ وانقسامهم في إجابة دعوته إلى: سابقٍ، ومقتصدٍ، وظالمٍ لنفسه، وبه يظهر فضل العلماء الربانيين على غيرهم من الناس أجمعين، فنقول:

مثل ذلك كمثل رسولٍ قَدِم من بلد الملك الأعظم فأدى رسالة الملك إلى سائر البلدان، وظهر لهم صدقه في رسالته، فكان مضمون رسالته التي أداها عند الملك الأعظم إلى رعيته:

أن هذا الملك لا إحسان أتم من إحسانه، ولا عدل أكمل من عدله، ولا بطش أشد من بطشه، وأنه لابد أن يستدعي الرعية كلهم إِلَيْهِ ليقيموا عنده، فمن قَدِمَ عليه بإحسان جازاه بإحسانه أفضل الجزاء، ومن قدم عليه بإساءة جازاه بإساءته أشد الجزاء، وأنه يحب كذا وكذا، ويكره كذا وكذا، ولم يدع شيئًا مما تعمله الرعية إلا أخبرهم بما يحبه الملك منه وبما يكره، وأمرهم بالتجهز والسير إلى دار الملك التي فيها الإقامة وأخبرهم بخراب جميع البلدان سوى ذلك البلد، وأن من لم يتجهز للسير بعث إِلَيْهِ الملك من يزعجه عن وطنه، وينقله منه على أسوأ حال، وجعل يصف صفات هذا الملك الحسنى من الجمال والكمال، والجلال والإفضال.

فانقسم الناس في إجابة هذا الرسول الداعي إلى الملك أقسامًا عديدة:

فمنهم من صدقه، ولم يكن له هم إلا السؤال عما يحب هذا الملك من الرعية واستصحابه إلى داره عند السير إِلَيْهِ.

فانشغل بتخليصه لنفسه، وبدعاء من يمكنه دعاؤه من الخلق إلى ذلك، وعما يكرهه الملك، فاجتنبه وأمر الناس باجتنابه، وجعل همه الأعظم السؤال عن صفات الملك وعظمته وإفضاله، فزاد

بذلك محبته لهذا الملك وإجلاله، والشوق إلى لقائه، فارتحل إلى الملك مستصحبًا لأنفس ما قدر عليه مما يحبه الملك ويرتضيه، واستصحب معه ركبًا عظيمًا على مثل حاله، سار بهم إلى دار الملك.

وقد عرف من جهة ذلك الدليل -وهو الرسول الصادق- أقرب الطرق التي يتوصل بالسير فيها إلى الملك، وما ينفع من التزود للمسير فيها، وعَمِلَ بمقتضى ذلك في السير هو ومن اتبعه.

فهذه صفة العلماء الربانيين الذين اهتدوا وهدوا الخلق معهم إلى طريق الله، وهؤلاء يقدمون على الملك قدوم الغائب على أهله، المنتظرين لقدومه، المشتاقين إِلَيْهِ أشد الشوق.

وقسم آخرون اشتغلوا بالتأهب لمسيرهم بأنفسهم إلى الملك ولم يتفرغوا لاستصحاب غيرهم معهم.

وهذه صفة العباد الذين تعلموا ما ينفعهم في خاصة أنفسهم، واشتغلوا بالعمل بمقتضاه.

وقسم آخرون تشبهوا بأحد القسمين، وأظهروا للناس أنّهم منهم، وأن قصدهم التزود للرحيل، وإنما كان قصدهم استيطان دارهم الفانية.

وهم العلماء والعباد المراءون بأعمالهم؛ لينالوا بذلك مصالح دارهم التي هم بها مستوطنون، وحال هؤلاء عند الملك الأعظم إذا قدموا عليه شر حال، ويقال لهم: اطلبوا جزاء أعمالكم ممن عملتم لهم، فليس لكم عندنا من خلاف، وهم أول من تسعر بهم النار من أهل التوحيد.

وقسم آخرون فهموا ما أراده الرسول من رسالة الملك، لكنهم غلب عليهم الكسل والتقاعد عن التزود للسفر.

واستصحاب ما يحب الملك، واجتناب ما يكرهه.

وهؤلاء العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، وهم على شفا هلكة، وربما انتفع غيرهم بمعرفتهم ووصفهم لطريق السير، فسار المتعلمون فنجوا، وانقطع بمن تعلموا منهم الطريق فهلكوا.

وقسم آخرون صدقوا الرسول فيما دعا إِلَيْهِ من دعوة الملك، لكنهم لم يتعلموا منه طريق السير، ولا معرفة تفاصيل ما يحبه الملك وما يكرهه، فساروا بأنفسهم، ورموا نفوسهم في طرق شاقة، ومخاوف وقفار وعرة، فهلك أكثرهم، وانقطعوا في الطريق، ولم يصلوا إلى دار الملك.

وهؤلاء هم الذين يعملون بغير علم.

وقسم لم يهتموا بهذه الرسالة، ولا رفعوا بها رأسًا، واشتغلوا بمصالح إقامتهم في أوطانهم التي أخبر الرسول بخرابها.

وهؤلاء: منهم من كذب الرسول بالكلية ومنهم من صدقه بالقول ولكنه لم يشتغل بمعرفة ما دل عليه ولا بالعمل به، وهؤلاء عموم الخلق المُعْرِضُون عن العِلْم والعمل.

ومنهم الكفار والمنافقون، ومنهم العصاة الظالمون لأنفسهم.

فلم يشعروا إلا وقد طرقهم داعي الملك، فأخرجهم عن أوطانهم، واستدعاهم إلى الملك، فقدموا عليه قدوم الآبق على سيده الغضبان.

فإذا تأملت أقسام الناس المذكورة لم تجد أشرف ولا أقرب عند الملك من العلماء الربانيين، فهم أفضل الخلق بعد المرسلين.

الشرح:

بعد أن بين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فضل العالم على العابد نبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إلى أن المراد بالعابد هنا من يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على بصيرةٍ وعلمٍ، أما العابد الذي يتعبد لله ﷻ بغير علمٍ فإنه مذمومٌ، ولا مدخل له فيما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى من الآثار، بل هو على خطرٍ عظيمٍ، ويفسد أكثر مما يصلح.

ثم ضرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالًا جامعًا لأحوال الخلق كلهم بالنسبة إلى دعوة النبي ﷺ، وسبق في كلام العلامة ابن سعدي أن من محاسن التعليم: ضرب الأمثلة، وتصوير الحقائق المذكورات بما يعبر عنها.

وقد ضرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مثالًا حسنًا في انقسام الناس على دعوة النبي ﷺ في انقسامهم على ملكٍ عظيمٍ له من الحال والهيبة والمقام ما له، ثم أظهر للناس ما يدعوهم إليه وبعث برسالته برسولٍ صادقٍ يدعوهم إليه ، فاختلف الناس فيه على أنحاءٍ عدةٍ ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، والسعيد من هؤلاء هو الذي يسعى إلى ذلك الملك بما يحبه ويرضاه ويجتهد في دعاء غيره من الخلق إليه، وهذا حال العلماء الربانيين كما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مع رب العالمين، فإنهم يقومون لله ﷻ بما وجب ويجتهدون في طاعته، ويدعون الخلق إلى ذلك، فهم أفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

قوله ﷺ: وَإِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ .

يعني أنّهم ورثوا ما جاء به الأنبياء من العِلْم، فخلفوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله والذب عن دينه.

وفي مراسيل الحسن، عن النبي ﷺ قال: رَحْمَةُ اللهِ عَلَى خُلَفَائِي. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي مِنْ بَعْدِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللهِ .

وقد روي نحوه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا أيضـًا.

فالعلماء في مقام الرسل بين الله وبين خلقه، كما قال ابن المنكدر:

إِنَّ العَالِمَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَلْيَنْظُرْ كَيفَ يَدْخُلُ عَلَيْهِم.

وقال ابن عيينة: أَعْظَمُ النَّاسِ مَنْزِلَةً مَنْ كَانَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ: الأَنْبِيَاءُ، وَالعُلَمَاءُ.

وقال سهل التستري: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَجَالِسِ العُلَمَاءِ، يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا فُلاَنُ، أيش تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَى امْرَأَتِهِ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: طُلِّقَتْ امْرَأَتُهُ، وَيَجِيءُ آخَرُ فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَى امْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا؟ فيقول: ليس يحنث بهذا القول.

وليس هذا إلا لنبي أو عالم، فاعرفوا لهم ذلك.

ورأت امرأة من العابدات في زمن الحسن البصري، كأنها تستفتي في المستحاضة، فقِيلَ لَهُا: أتستفتين وفيكم الحسن، وفي يده خاتم جبرئيل عليه السلام؟

وفي هذا إشارة إلى وراثة الحسن ما جاء به جبرئيل من الوحي بخاتمه.

ورأى بعض العلماء النبي ﷺ في المنام فَقَالَ له: يا رسول الله، قد اختلف علينا في مالك والليث أيهما أعلم؟

فَقَالَ ﷺ: مالك ورث جدي -يعني: ورث علمي.

ورأى بعضهم في المنام النبي ﷺ قاعدًا في المسجد، والناس حوله، ومالك قائم بين يديه، وبين يدي رسول الله ﷺ مسك، وهو يأخذ منه قبضة فيدفعها إلى مالك، ومالك ينشرها على الناس فأول ذلك لمالك بالعلم واتباع السنة.

ورأى الفضيل بن عياض النبي ﷺ في منامه جالسًا، وإلى جنبه فرجة، فجاء ليجلس فيها، فَقَالَ له النبي ﷺ: هذا مجلس أبي إسحاق الفزاري .

فسئل بعضهم: أيهما كان أفضل أبو إسحاق أو فضيل؟ فَقَالَ: كان فضيل رجل نفسه، وكان أبو إسحاق رجل عامة. يشير إلى أنّه كان عالمًا ينتفع الناس بعلمه، وكان فضيل عابدًا نفعه لنفسه.

والعلماء في الآخرة يتلون الأنبياء في الشفاعة وغيرها، كما في الترمذي ، عن عثمان، عن النبي ﷺ: يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ .

وقال مالك بن دينار: بَلَغَنَا أَنَّهُ يُقَالُ لِلعَابِدِ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، وَيُقَالُ لِلْعَالِمِ: قِفْ فَاشْفَعْ .

وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف جدًّا.

وللعلماء الكلام في الموقف إذا اشتبهت الأمور على الناس؛ فإذا ظن أهل الموقف أنّهم لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة؛ بَيّن أهل العِلْم أن الأمر على خلاف ذلك كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} الآية .

والعلماء يخبرون يوم القيامة بخزي المشركين كما قال تعالى: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} .

وقد روي في حديث مرفوع: إِنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ فِي الجَنّةِ إِلَى العُلَمَاءِ كَمَا كَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنيا، إِذَا اسْتَدْعَى الرَّبُّ أَهْلَ الجَنَّةِ لِزِيَارَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: سَلُونِي مَا شِئْتُمْ فَيَلْتَفِتُونَ إِلَى العُلَمَاءِ مِنْهُمْ، فَيَقُولُونَ: سَلُوهُ رُؤْيَتِهِ؛ فَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْظَمُ مِنْهَا .

وهذا كله يبين أن لا درجة بعد النبوة أفضل من درجة العلماء.

وقد يطلق اسم العلماء ويراد إدخال الأنبياء فيهم كما في قوله تعالى: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} .

فلم يفرد الأنبياء بالذكر؛ بل أدخلهم في مسمى العلماء، وكفى بهذا شرفًا للعلماء أنّهم يسمون باسم يجتمعون هم والأنبياء فيه.

ومن هنا قال من قال: إِنَّ العُلَمَاءَ العَامِلِينَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ.

كما قال أبو حنيفة والشافعي: إِنْ لَمْ يَكُنْ العُلَمَاءُ وَالفُقَهَاءُ أَوْلِيَاءَ اللهِ فَلَيْسَ للهِ وَلِيٌّ.

وقال الإمام أحمد في أَهْلِ الْحَدِيثِ: إِنَّهُمْ هُمُ الأَبْدَالُ.

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه الجملة بيان قوله ﷺ: وإن العلماء ورثة الأنبياء، إذ قد تقرر أن لكل مخلوقٍ وارث، وإن ممن يُورث الأنبياء، ووارث الأنبياء هم العلماء؛ لأن أصل النبوة هو العلم والوحي، وإذا انقطع الوحي بموت الأنبياء فإن ما جاءوا به من العلم يبقى بقيام العلماء عليه، فيكون هؤلاء العلماء بمنزلة وراث النبوة لأنهم ورثوا العلم، ولهذا جاء في بعض الآثار أن علماء هذه الأمة بمنزلة أنبياء بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، إذا مات نبيٌّ قام نبيٌّ فصلاحهم بذلك، كما ثبت في صحيح البخاري، ولما كانت هذه الأمة لا نبي فيها بعد محمدٍ ﷺ صار العلماء هو الذين يسوسون الناس بعد موت النبي ﷺ ويقسمون ميراثه بين الخلق، ويدلون الناس على ما يجب عليهم من حق ربهم سبحانه وتعالى وما تقوم به عبادتهم له ﷻ، فصار مقامهم أفضل لأنهم وراث النبي.

وكما أن الخلق يقدمون من ورث الملك عن آبائه ويكون له عندهم حسبٌ، فإن العلماء لهم أرفع من هذا الحسب ، فإن الملك لا يرث إلا سلطانًا أخذه عمن قبله، وأما العالم فإنه يرث ما هو أعظم من سلطان الأرض، وهو سلطان القلوب، ألا وهو العلم الذي تذعن له القلوب وتقر، ولا شك أن من يتصرف في القلوب أعظم ممن يتصرف في الأبدان والأموال، فإن الأبدان والأموال قد يقدر عليها، وأما القلوب فإنه لا يقدر عليها، إنما يمكن ذلك للعالم الذي ورث النبي فصار يهدي الناس ويرشدهم ويبين لهم الهدى والنور.

قوله ﷺ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ .

والمراد بهذا أن العلماء ورثوا الأنبياء فيما خلفوه، وأن الَّذِي خلف الأنبياء هو العِلْم النافع، فمن أخذ العِلْم وحصل له فقد حصل له الحظ العظيم الوافر الَّذِي يغبط به صاحبه.

وَرَأَى ابْنُ مَسْعُود قَوْمًا فِي المَسْجِدِ يَتَعَلَّمُونَ فَقَالَ رَجُلٌ: عَلَى مَا اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ؟ فقَالَ: عَلَى مِيرَاثِ مُحَمَّد ﷺ يَقْتَسِمُونَهُ.

وخرج أبو هريرة إلى السوق، فَقَالَ لأهله: تَرَكْتُمْ مِيرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْتَسَمُ فِي المَسْجِدِ وَأَنْتُمْ هَا هُنَا؟! فتركة النبي ﷺ وميراثه هو هذا الكتاب الَّذِي جاء به مع السنة المفسرة له المبينة لمعانيه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنّه سئل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، يَعْنِي: دفتي المُصْحَف .

وفي الصحيحين عن ابن أبي أوفى أنّه سئل: هل وصى رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: وَصَّى بِكِتَابِ اللهِ .

وخطب ﷺ في مرجعه من حجة الوداع فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَى الهُدَى وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ خرَّجه مسلم .

وفي المسند عن عبد الله بن عمرو قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا كَالْمُوَدِّعِ، فَقَالَ: أَنَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ -قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَعُوفِيتُ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ؛ فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ .

قوله ﷺ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ .

يريد أنّهم لم يورث عنهم سوى العِلْم، وهذا يبين المراد بقوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ} .

وقوله تعالى عن زكريا أنّه قال: {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} .

إنما أريد به ميراث العِلْم والنبوة لا المال؛ فإن الأنبياء لا يجمعون مالاً يتركونه.

قال عليه السلام: مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مُؤْنَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ عِيَالِي فَهُوَ صَدَقَةٌ .

وَمَا تَرَكَ إِلاَّ دِرْعَهُ وَسِلاحه وَبَغْلَتَهُ البَيْضَاءَ وَأَرْضًا جعلَهَا صَدَقَةً .

فلم يخلف سوى آلته الَّذِي بعث به، والأرض التي كان يقتات منها هو وعياله، ردها صدقة على المسلمين.

وكل هذا إشارة إلى أن الرسل لم تبعث بجمع الدنيا وتوريثها لأهليهم، وإنما بعثوا بالدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والعلم النافع وتوريثه لأممهم.

وفي مراسيل أبي مسلم الخولاني، عن النبي ﷺ قال: مَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ المَالَ وَأَكُنْ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أَوْحَى إِلَيّ: أَنْ سَبّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ خرجه أبو نعيم .

وفي الترمذي وغيره عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟! إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ بِظِلِّ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

فقوله ﷺ: وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ . فيه إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن العالم الَّذِي هو وارث للرسول حقيقة، كما أنّه ورث علمه فينبغي أن يورثه كما ورث الرسول العِلْم، وتوريث العالم العِلْم هو أن يخلفه بعده بتعليم أو تصنيف، ونحو ذلك مما ينتفع به بعده.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: إِذَا مَاتَ العبدُ انْقَطَعَ عَمَلُه إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: عِلْمٍ نَافِعٍ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ .

فالعالم إذا عَلَّم من يقوم به بعده؛ فقد خلف علمًا نافعًا وصدقة جارية؛ لأنّ تعليم العِلْم صدقة، كما سبق عن معاذ وغيره، والذين علمهم بمنزلة أولاد الصالحين يدعون له، فيجتمع له بتخليف علمه هذه الخصال الثلاث.

والأمر الثاني: أن من كمال ميراث العالم للرسول -عليه السلام- أن لا يخلف الدنيا كما لم يخلفها الرسول، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنته في زهده في الدنيا، وتقلله منها، واجتزائه منها باليسير.

كما كان سهل التستري يقول: مِنْ عَلامَةِ حُبِّ السُّنَّةِ حُبُّ الآخِرَةِ وَبُغْضُ الدُّنْيَا، وألا يأخذ مِنْهَا إِلاَّ زَادًا بُلْغَةً إِلَى الآخِرَةِ.

وقال مالك بن دينار: إِنَّمَا العَالِمُ الَّذِي إِذَا أَتَيْتَهُ فِي بَيْتِهِ فَلَمْ تَجِدْهُ قَصَّ عَلَيْكَ بَيْتِهِ، رَأَيْتَ حَصِيرَةَ الصَّلاةِ وَمُصْحَفِهِ وَمَطْهَرَتَهُ فِي جَانِبِ البَيْتِ، تَرَى أَثَرَ الآخِرَةِ.

وكان الفضيل يقول: احْذَرُوا عَالِمَ الدُّنْيَا لاَ يَصُدَّكُمْ بِسُكْرِهِ. ثم قال: إِنَّ كثيرًا مِنْ عُلَمَائِكُمْ زِيُّهُ أَشْبَهَ بِزِيِّ كِسْرَى وَقَيْصَر، أَشْبَهُ مِنْهُ بِزِيِّ مُحَمَّد ﷺ، إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ، وَلاَ قَصَبَةً عَلَى قَصَبَةٍ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عَلَمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ .

وكان يقول: العُلَمَاءُ كَثِيرٌ وَالحُكَمَاءُ قَلِيلٌ، وَإِنَّمَا يُرَادُ مِنَ العِلْمِ الحِكْمَةُ، فَمَنْ أُوتِيَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

وهكذا كان حال العُلَمَاء الربانيين كالحسن وسفيان وأحمد، اجتزءوا من الدنيا باليسير إلى أن خرجوا منها، ولم يخلفوا سوى العِلْم، مع أن بعضهم كان يلبس لباسًا حسنًا، ويأكل أكلاً متوسطًا بعيدًا من التقشف.

كالحسن البصري؛ فإنه كان يأكل اللحم كل يوم، كان يشتري بنصف درهم لحمًا فيطبخه مرقة طيبة فيأكل منه هو وعياله، ويُطْعِمُ كل من دخل عليه، وكان يلبس الثياب الحسنة، وهو مع هذا أزهد الناس في الدنيا، وما زاحم على شيء منها قط.

وكان الناس إذا دخلوا عليه خرجوا من عنده، ولا يعدون الدُّنْيَا شيئًا، وما رأوا أشد احتقارًا لأهل الدُّنْيَا منه.

وكانوا يدخلون عليه في مرضه يعودونه وليس في بيته إلا سرير مرمول هو عليه، وليس في بيته قليل ولا كثير، حتى قال ابن عون: إِنَّمَا اسْتَبَدَّ الحَسَنُ النَّاس بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فَأَمَّا العِلْمُ فَقَدْ شُورِكَ فِيهِ .

وكان الحسن يقول: إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبُ فِي الْآخِرَةِ، المُجْتَهِدُ فِي العِبَادَةِ، القَائِمُ بِسُنَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، من رأى مُحَمَّدًا فقد رآه غاديًا ورائحًا لم يضع لبنة، على لبنة ولا قصبة على قصبة؛ إِنَّمَا رفع له علم فشمر إِلَيْهِ .

وكان سفيان الثوري أشد تقشفًا في ملبسه من الحسن، حتى كان من يراه ولا يعرفه يظنه من السؤال، وكان مع شدة ورعه إذا وجد الحلال أكل منه طيبًا، وإن لم يجد حلالاً استف الرمل، وربما بقي ثلاثًا لا يطعم شيئًا مع عرض الناس عليه الأموال الكثيرة.

وكان إذا شبع من الحلال يزيد في عمله ويقول: أطعم الزنجي وكده .

وكان أزهد الناس في الدُّنْيَا في زمانه حتى كان يتعرى بمجلسه عن الدُّنْيَا ولم تكن السلاطين والملوك والأغنياء أذل منهم في مجلسه، ولا الفقراء والمساكين أعز منهم فى مجلسه.

وكان الخوف قد غلب عليه، فلما مرض مرض الموت حُمل ماؤه إلى طبيب فَقَالَ: لَيْسَ لِهَذَا دَوَاءٌ، هَذَا قَدْ فَتَّتَ الحُزنُ وَالخَوفُ كَبِدَهُ .

ويقال: لم يكن في زمانه من هو أخوف لله منه، ولا من هيبة الله في صدره أعظم منه.

ولما مات قال بعض العُلَمَاء: معشر أهل الهوى، كلوا الدُّنْيَا بالدين، فقد مات سفيان، يعني؛ ما بقي بعده أحد يستحيا منه.

وأما الإمام أحمد فكان أشد منهما تقشفًا في عيشه وأكثر صبراً على خشونة العيش للقلة، وكانت معيشته من حوانيت له ورثها من أبيه، ويأخذ أجرها في الشهر دون عشرين درهمًا، ومات لم يخلف إلا قطعًا في خرقة له، كان وزنها دون نصف درهم، وترك عليه دينًا قضي عنه من أجرة حوانيته مع كثرة ما كان يرد عليه من الخلفاء من الجوائز والصلات.

وكان يحيى بن أبي كثير من العُلَمَاء الربانيين المتوسعين في العِلْم، وكان يقال: إنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مِثْلُهُ، وَكَانَ حسن الثياب، حسن الهيئة، فلما مات خلف ثلاثين درهمًا كفنوه بها رحمه الله.

وكان محمد بن أسلم الطوسي من العُلَمَاء الربانيين الزهاد، فمات ولم يخلف سوى كساءه ولبده ، فوضعوهما على نعشه وإناء للوضوء تصدقوا به. فكان النساء على السطوح يقلن في جنازته: هَذَا العَالِمُ الَّذِي خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهَذَا مِيرَاثُهُ الَّذِي عَلَى جَنَازَتِهِ، لَيْسَ مِثْلَ عُلَمَائِنَا هَؤُلاَءِ عَبِيدُ بُطُونِهِمْ، يَجْلِسُ أَحَدُهُمْ لِلْعِلْمِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا فَيَشْتَرِي الضِّيَاعَ وَيَسْتَفِيدُ المَالَ.

وقال العباس بن مرثد: سَمِعْتُ أَصْحَابَنَا يَقُولُونَ: صَارَ إِلَى الأَوْزَاعِي أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ السُّلْطَانِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، فَلَمَّا مَاتَ خَلَّفَ سَبْعَةَ دَنَانِيرَ بَقِيَتْ بَقِيَّةً، وَمَا كَانَ لَهُ أَرْضٌ وَلاَ دَارٌ.

قال العباس: نَظَرْنَا فَإِذَا هُوَ أَخْرَجَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالفُقَرَاءِ.

وقد وصف الله سبحانه في كتابه العُلَمَاء بأوصاف منها: الخشية والخشوع والبكاء، كما سبق ذكره.

ومنها احتقار الدُّنْيَا والتزهيد فيها كما قال تعالى في قصة قارون:

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} .

وقيل للإمام أحمد: إِنَّ ابن المبارك قِيلَ لَهُ: كيف يعرف العالم الصادق؟ فَقَالَ: الَّذِي يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَيُقْبِلُ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ.

فَقَالَ أحمد: نعم، هكذا ينبغي أن يكون. وكان أحمد ينكر على أهل العِلْم حب الدُّنْيَا والحرص على طلبها.

واعلم أنّه إِنَّمَا أهلك أهل العِلْم وأوجب إساءة ظن الجهال بهم وتقديم جهال المتعبدين عليهم ما دخل عليهم من الطمع في الدُّنْيَا.

وقد رأى علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- رجلاً يقص، فَقَالَ له: لأَسْأَلَنَّكَ مَسْأَلَةً، فَإِنْ خَرَجْتَ مِنْهَا وَإِلاَّ عَلَوْتُكَ بِهَذِهِ الدُّرَّةِ، فَقَالَ له: سَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ له: مَا ثَبَاتُ الدِّينِ وَزَوَالُهُ؟

فَقَالَ له: ثَبَاتُ الدِّينِ الوَرَعُ، وَزَوَالُهُ الطَّمَعُ.

فَقَالَ له: قُصَّ، فَمِثْلُكَ يَقُصُّ .

وهذا السؤال من علي -رضي الله عنه- لهذا القاص فيه إشارة إِلَى أن من نشر علمه للناس وتكلم عليهم، ينبغي أن يكون ورعًا عما في أيديهم، غير طامع في شيء من أموالهم ولا أرزاقهم، ولا اجتلاب قلوبهم اليه، وإنما ينشر علمه لله عز وجل ويتعفف عن الناس بالورع.

وقال أبو حازم الزاهد: لَقَدْ أَتَتْ عَلَيْنَا بُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِنَا وَمَا عَالِمٌ يَطْلُبُ أَمِيرًا، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا عَلِمَ اكْتَفَى بِالعِلْمِ عَمَّا سِوَاهُ، فَكَانَتْ الأُمَرَاءُ تعساهم في منازلهم وتقتبس منهم، فَكَانَ فِي ذَلِكَ صَلاَحٌ لِلْفَرِيقَيْنِ لِلْوَالِي والمُولى عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَتْ الأُمَرَاءُ أَنَّ العُلَمَاءَ قَدْ غَشُّوهُمْ وَجَالَسُوهُمْ، وَسَأَلُوهُمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ هَانُوا عَلَيْهِمْ، وَتَرَكُوا الأَخْذَ عَنْهُمْ وَالاقْتِبَاسَ مِنْهُمْ، فَكَانَ فِي ذَلِك هَلاَكُ الفَرِيقَيْنِ الوَالِي والمُولى عَلَيه.

ودخل أعرابي البصرة فَقَالَ: مَنْ سَيِّدُ هَذِهِ القَرْيَةِ؟ فقالوا: الحَسَنُ، قَالَ: فَبِمَ سَادَهُمْ؟

قالوا: احْتَاجَ النَّاسُ إِلَى عِلْمِهِ، وَاسْتَغْنَى هُوَ عَنْ دُنْيَاهُمْ.

وكان الحسن يقول: إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَيْنًا، وَشَيْنُ العِلْمِ الطَّمَعُ.

وقال: مَنْ ازْدَادَ عِلْمًا فَازْدَادَ عَلَى الدُّنْيَا حِرْصًا، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلاَّ بُعْدًا، وَلَمْ يَزْدَدْ اللهُ لَهُ إِلاَّ بُغْضًا.

واجتاز الحسن يَوْمًا ببعض القراء عَلَى أبواب بعض السلاطين فَقَالَ:

أَقْرَحْتُمْ جِبَاهَكُمْ، وَفَرْطَحْتُمْ نِعَالَكُمْ، وَجِئْتُمْ بِالعِلْمِ تَحْمِلُونَهُ عَلَى رِقَابِكُمْ إِلَى أَبْوَابِهِمْ، فَزَهِدُوا فِيكُمْ، أَمَّا إِنَّكُمْ لَوْ جَلَسْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يُرْسِلُونَ إِلَيْكُمْ؛ لَكَانَ أَعْظَمَ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، تَفَرَّقُوا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ أَضْلاعِكُمْ.

وفي رواية: تَفَرَّقُوا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَامِكُمْ، فَرْطَحْتُمْ نِعَالَكُمْ، وَشَمَّرْتُمْ ثِيَابَكُمْ، وَجَزَزْتُمْ شُعُورَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ رَغِبْتُمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ فَزَهِدُوا فِيكُمْ، فَضَحْتُمْ القُرَّاءَ فَضَحَكُمُ اللهُ، أما وَاللهِ لَوْ زَهِدْتُّمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ لَرَغِبُوا فِيمَا عِنْدَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ رَغِبْتُمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ فَزَهِدُوا فِيكُمْ وَفِيمَا عِنْدَكُمْ أَبْعَدَ اللهُ مَنْ أَبْعَدَ.

وفي الجملة فمن لا يصون نفسه لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع غيره به.

قال الشافعي: مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ تَفَقَّهَ نَبُلَ قَدْرُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الحِسَابَ جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ.

وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني رحمه الله:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

ولَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لأَخْدِمَ مَنْ لاَقَيْتُ لَكِنْ لأُخْدَمَا

أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذًا فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

الحرص عَلَى الدُّنْيَا والطمع فيها قبيح وهو من العُلَمَاء أقبح، فإن كان بعد نزول الشيب فهو أقبح وأقبح.

لبس بعض العُلَمَاء من التابعين ثيابه وتهيأ ليمضي لبعض الملوك فأخذ المرآة فنظر فيها فنظر في لحيته طاقة شيب، فَقَالَ: السلطان والشيب! ثم نزع ثيابه وجلس.

قَدْ آنَ بَعْدَ ظَلاَمِ الجَهْلِ إِبْصَارِي ... لِلْشَّيْبِ صُبْح يُنَادِينِي بِأَسْفَارِي

لَيْلُ الشَّبَابِ قَصِيرٌ فَاسْرِ مُتَّئِدًا ... إِنَّ الصَّبَاحَ قُصَارَى المُدَلِجِ السَّارِي

كَمْ ذَا اغْتِرَارِي بِالدُّنيا وَزُخْرُفِهَا ... أَبْنِي بِنَاهَا عَلَى جُرُفٍ لَهَا هَارِ

دَارٌ مَآثِمُهَا تَبْقَى وَلَذَّتُهَا ... تَفْنِي أَلا قُبِّحَتْ هَاتِيكَ مِنْ دَارِ

لَيسَ السَّعِيدُ الَّذِي دُنْيَاهُ تُسْعِدُهُ ... إِنَّ السَّعِيدَ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ

أَصْبَحْتُ مِنْ سَيِّئَاتِي خَائِفًا وَجِلاً ... وَاللهُ يَعْلَمُ إِعْلاَئِي وَإِسْرَارِي

إِذَا تَعَاظَمْتُ ذَنْبِي ثُمَّ آيَسَنِي ... رَجَوْتُ عَفْوَ عَظِيمِ العَفْوِ غَفَّارِ

نجزت، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله عَلَى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

الشرح:

ختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتابه هذا ببيانٍ شافٍ في إيضاح قول النبي ﷺ: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ».

إذ بين أن العلم هو ميراث النبوة، وأن الأنبياء لم يتركوا شيئًا من الدنيا وإنما ورثوا العلم لمن بعدهم، فمن أقبل على ميراثهم فقد فاز بنصيبٍ عظيمٍ، وحظٍ وافرٍ زاخرٍ، ومن أعرض عنه واشتغل بالدنيا فقد حرم ميراثهم وانتقل إلى ميراث الأراذل من أهل البطر والأشر والكبرياء والفخر، من المتوسعين في الدنيا.

وأخبر فيما أخبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن هذه الجملة تفيد العالم العناية بشيئين اثنين:

أحدهما : تحريضه على توريث العلم بعده، إما ببث العلم ونشره، أو بالتصنيف فيه، أو غير ذلك.

والثانية: تحذيره من الركون إلى الدنيا، والأخذ في جمعها، فإنه يخرج بهذا عن وصف ورثة النبوة، لأن الأنبياء لم يكن لهم شغلٌ بها، وإذا اجتر هو الدنيا إليه فقد خرج من طريقة الأنبياء إلى طريقة غيرهم.

وساق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كلامًا نافعًا نفيسًا في التحذير من الركون إلى الدنيا وقبيح أثرها في أهل العلم، وأن الخلق إنما وقع تقديمهم في الصورة لبعض المتعبدين لأجل ما طرأ على بعض العلماء من طلب الدنيا وسؤالها وإظهار أهل التعبد العزوف عنها والميل عنها، وكلما أقبل الإنسان على طريقة الأنبياء كلما كان حظه من العلم عظيمًا، وكلما شغل بالدنيا كلما كان حظه من العلم قليلًا، وليس المراد بذم الدنيا ألا يتوسع الإنسان فيما أباحه الله له إذا جاءه بطريقٍ مباحٍ، ولكن المذموم هو أن تكون الدنيا شغله ووكده ومشقته وتعبه، فلا يعاب العالم إذا كان في منزلٍ واسع، وله مركبٌ فاخرٌ، ولكن يلام إذا كان هذا المال جاءه بطريقٍ محرمٍ أو مشتبهٍ ، أو كان يتطلب الحصول عليه ليله ونهاره، وينفق من وقته ما يصل به إلى مثل هذه الأموال العظيمة، أما من رزقها بميراث أو صلة سلطان أو غيرها، فالتوسع في ذلك أمرٌ مباحٌ عند أهل العلم والدنيا بعامةٍ بمنزلة القاذورات إذا تنجس الإنسان بها نفرت النفوس السوية عنه، فإذا تلطخ العالم بهذه القاذورات قل انتفاع الناس به، وذهبت بركة علمه، لهذا يوجد في الانتفاع في العالم الصادق المائل عن الدنيا وإن كان متوسعًا فيها فيما أباح الله يوجد من الإقبال عليه ما لا يوجد على غيره.

نسأل الله العلي العظيم أن يرزقنا جميعًا وراثة الأنبياء، وأن يوفقنا إلا الإتساء بهم والاقتداء، وأن يحيينا على خير حال ويميتنا على خير حال.

وهذا آخر التقرير على هذه الدرس، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.